رواية
حسام مصطفى إبراهيم
بتوقيت
القاهرة
دار دوِّن

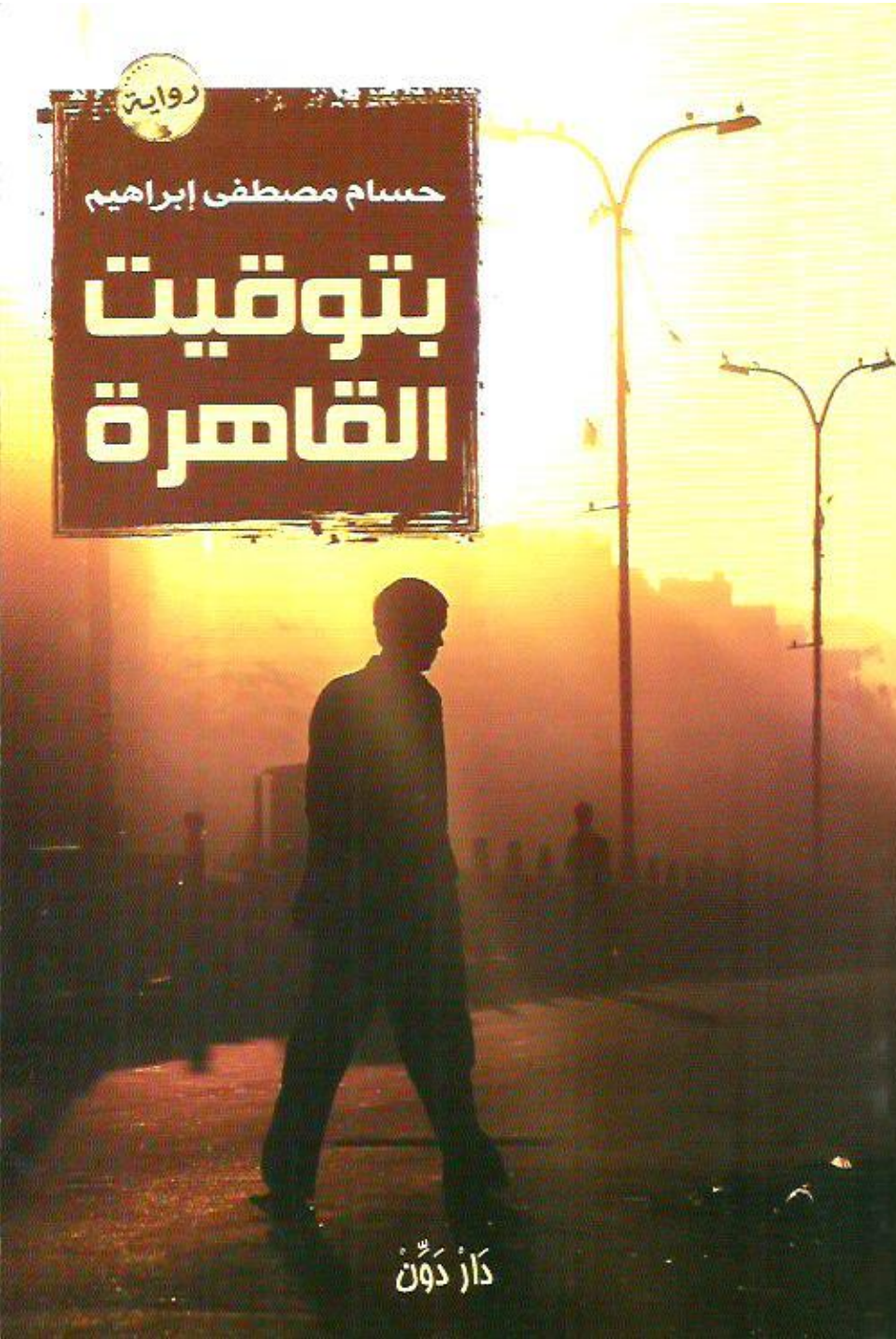

بتوقيت القاهرة

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٥
رقم الإيداع: ٢١٥٥٩/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ٨-٦٥-٦٤٢٦-٩٧٧-٩٧٨
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: أحمد مراد

جَميع حُقوق الطَبع والنَّشر محفُوظة
© دار دَوّن

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

بتوقيت القاهرة

Cairo Time

حسام مصطفى إبراهيم

رواية

دار دَوّن للنشر والتوزيع

إهـــــــداء

إلى مصطفى إبراهيم، في الجَنّة، حيث يلوذ.

(١)

«تررررررررررررررن»

تنهض في تثاقل، وتفتّش عن الموبايل، لتُغلق المنبّه اللحوح المزعج المنبعث منه. تتذكّر أنك ألقيته على الترابيزة البعيدة عن متناول يدك أمس، فمن شدّة التعب والخَدَر، سارعتَ برميه في أول مكان لمحتْهُ عيناك، عندما وضعتَ قدميك في الشقة في ساعة متأخرة من الليل، حتى تتخلّص من ثقله ولو كان هزيلاً، ثم تمدّدتَ بكامل ثيابك على السرير، ولم تنتبه لعلبة كِريم الشعر وبنطلون الترنج والشاحن وفرشاة الأسنان التي تمدّدتْ قبلك عليه، ولا حتى للفحة البرد التي تسلّلت من الشباك الموارب وفَرمت عظامك، وسبّبت لك معظم كوابيس الليلة الفائتة.

بصعوبة تُلملم عظامك وجلدك وأطرافك وملامحك المعتادة، تحشو كل هذا في البنطلون الجينز الأزرق والبلوفر الأسود والشراب والحذاء، وتدفع به ليمرّ عبر باب الشقة الذي وجدَته مواربًا.

يبدو أن أحد زملائك في السَكن قد نسيه بالأمس، أو أنك أنت الذي نسيته!

تنتابك رغبة مجنونة في أن تتركه مواربًا كما كان، بل تمدّ يدك وتفتحه أكثر، وتُسلم قدميك للسلم الطويل، وتتسلى -مثل كل يوم - بعدِّ الدرجات المفرودة أمامك، فيعاودك نفسُ الهاجس القديم، الذي يُلح عليك، أنها تزداد يومًا بعد يوم، خاصة في أثناء الليل، عندما لا يكون هناك من يراقبها أو يتجسّس عليها، وعندما يكاد التعب يقتلك، وتتمنّى لو لم تسكن في الدور الخامس، تفكر أنها تفعل ذلك على سبيل التغيير والقضاء على الملل، أو للانتقام من السُكّان الذين يعتمدون عليها بشكل أساسي في الصعود والهبوط، دون أن يوجّه أحدهم لها -ولو مرة واحدة - كلمة شكر أو امتنان!

في طريقك لـ«موقف الأتوبيس»، أشكال المارين حولك لا تتغيّر، الشاب الأسمر الصعيدي الذي يمسح سيارة حضرة الضابط، بعرقه الذي لا ينقطع صيفًا أو شتاء، وصمته الذي تشك معه أن له لسانًا من الأصل، وجلبابه الذي يرتفع لمنتصف وسطه، فيظهر من تحته الكلسون الشتوي البني، ويداه تحاولان إزالة الوسخ عن السيارة القديمة المتهالكة، ليقلّل من وجبة السباب والشتيمة التي يُتحفه بها حضرة الضابط كل يوم، مهما بذل من جهد.

والبنت الصغيرة التي تحتضن حقيبتها منتظرة أتوبيس المدرسة، تمرّ جوارها فتسمعها تتحدث إلى حبيبها في الموبايل، بصوت هامس ومضطرب مليء بشجن البدايات، تعطيه الموعد المُقبل بعد درس «الرياضيات» على أول كوبري «قصر النيل».

والرجل العجوز الساهر في بلكونة الدور الأرضي، ليل نهار، بنفس البيجامة «الكستور» المخطّطة بالطول، والروب والطاقية وجريدة

الأهرام في يده، يشرب كوب الشاي، ويحاول إشعال سيجارته التي لم ترها مرة واحدة مشتعلة، يتحدث إلى كل من يمرّ أمامه، ويسأله عن أي شيء، بحثًا عن لحظات دفء وتواصُل، وعندما يستوقفك ويبدأ في حديث مكرّر، تنتبه أن تاريخ الجريدة من عام مضى، وأن كوب الشاي يبدو باردًا لا يتصاعد منه أي دخان، وتلمح هذا التمزّق في بيجامته، والبقعة السوداء الكبيرة في مُقدّمة الروب، فتستأذن منه بلطف حتى لا تتأخر.

لا تجد أحدًا في «المَوقَف» أمام سلم جامعة الأزهر، فتتخيّل أنك آدم، بلا حواء، ولا شجرة محرّمة، ومع ذلك تسمع هسيس الشيطان، الذي أصبح رفيقك الوحيد عبر اتساع الشوارع وبُعد المسافات عن الأهل والصحاب، يعرض لك طائفة من كل المُحرّمات التي تشتهيها، لكنك لا تجرؤ على الاستماع له، وتؤجل البتّ في كل شيء، حتى تكون في موقف يسمح لك بارتكاب الخطأ مع ضمان الإفلات من عواقبه بلا خسائر ولا ذيول.

تنفض أذنيك، وتشير للعربات المتجهة إلى «رمسيس»، يقف أتوبيس ضخم ومتهالك بعد فترة، تركب في المقعد الأخير جوار النافذة، يصعد بعدك شابٌ ملتحٍ، وامرأة عجوز بصحبتها طفل صغير منكوش الشعر، يضع يده في جبيرة، ويتحدث بحماس عن مصباح «علاء الدين» الذي وجده في «حوش» المدرسة، وعندما خرج منه العفريت، طلب منه أن يتغيّب أستاذ العربي شهرًا، فنفّذ له الطلب بالفعل.

تمرّ المَشَاهد بسرعة أمام عينيك، فلا تتمكن من الإمساك بالتفاصيل، أو تثبيت عينيك على شيء بعينه، تلفت انتباهك سحابة عابرة، تشعر

-يقينًا - أنها مرت منذ ثانية واحدة فوق بيت أمّك في مدينتك «شربين»، تشمّ الرائحة الحبيبة، فيعتصرك الإحساس المضني، وترتعش، تُبعد عينيك قسرًا، وتتشاغل بجمع «الأُجرة» من الركاب، حتى لا يدّعي «التبّاع» -مثل كل مرة - أن هناك من لم يدفع، ويتّجه بصرُه إليك تلقائيًا، مع أنك أول من حاسبته!

في «غَمْرَة» يتوقف الأتوبيس، فتنزل العجوز بصحبة الطفل الذي كان يُخبرها هذه المرة عن خطّته لإبادة الناظر والمدرسين، بالذات الأستاذ «حسين».

تصعد -رغمًا عن التبّاع- ملابس رثّة، ملقاةٌ بإهمال على جسد ضامر مهدود، تسندها عصا مُعوّجة الرأس، مليئة بالحُفَر والنتوءات، وذات نهاية مدببة كأنها مسمار، ورغم وجود أكثر من مقعد شاغر، تختار هذه الكتلة المُهَمة المقعد المجاور لك بالذات، وترتمي عليه.

يتأفف الملتحي ويقوم ليجلس في مكان آخر، فتشعر بالحرج، وتتباعد، لتسمح بوجود أكبر قدر ممكن من الفراغ، بينك وبين الرائحة النفّاذة التي جثمتْ، وتعاود التحديق من النافذة.

ماذا تفعل لو قَبِل الطفلُ الصغير إقراضَك مصباحه؟ وهل يكفي مصباح واحد لحل جميع مشاكلك؟

يقطع أفكارَك صوتُ الكتلة الرثّةَ المجاورة لك، والتي بدأتْ تتشكل على هيئة إنسان كبير ووحيد، يصيح بصوت رفيع وممطوط، يضغط على الحروف ويأكل نهاياتها: «مش هتبطل تعاكسني بقى يا ابن الكلب، حاكم أنا عارفك وهجيبك، وهبهدلك!»

تنتبه ليده المعروقة التي تهبط إلى جواره، قابضة على «موبايل» قديم مكسور، لا يمكن أن يكون صالحًا لأي شيء حتى الآن.

مرة ثانية، ترتفع يده، وينفتح فمه، فتنهال الشتائم والألفاظ التي لم تسمعها من قبل!

تعتدل في مقعدك، وتحدّق في ملامحه أكثر، حُفَر وتجاعيد وملامح باهتة غابرة ومنسيّة، مر عليها قطار المرض والفقر، فصنع منها لوحة كبيرة ومُؤسية، لو كان هذا الرجل في بلدتك الطيبة -تُحدّث نفسك- لم يكن أهلها ليتركوه هكذا!

«والله عارفك، وهجيبك، إنت فاكرني مش هعرف آخد حقي منك؟».

يتحرّش «التبّاع» به، ويطالبه بالأُجْرَة، فيرتفع صوت العجوز، وتزداد لهجته حدة وشتائمه قسوة، يقبض «التبّاع» على يده بقوة، فيتأوّه، تنتفض من مكانك، وتزجر «التبّاع»، وتُخرج ثمن التذكرة من جيبك، وتلقي به في وجهه.

يتحرّك الأتوبيس حركة عنيفة مفاجئة، فترتطم قدمك بأسفل المقعد، وتكاد تسقط على العجوز، لكنك تتماسك، وتعود لكرسيك، على أنغام الشتائم التي تصاعد وقعُها، وبدأت تطول كل مسؤولي الدولة.

«رمسيس .. رمسيس...اللي نازل رمسيس».

تقوم من مقعدك على مهل، عرج خفيف غير ملحوظ في رجلك التي تلقّت الصدمة، تُلقي على «العجوز» نظرة أخيرة، وتقارن -دون إرادتك- بين بقاياه وشبابك الغض، فتشعر أن ثمة تشابهًا كبيرًا وضخمًا بينكما مع ذلك، فكلاكما غريب ووحيد وضائع في مدينة بلا قلب.

(٢)

لم تتناول أي طعام في المكتب، خلال الأيام الأولى من استلام عملك الجديد، «الأوفيس بوي» مسؤوليته تقف عند حد الشاي والقهوة والنسكافيه، أما الأكل فمسؤوليتك وحدك.

الساعة الثانية أو الثالثة ظهرًا، تتحرك معدتك بالجوع، فتُسكتها بمزيد من العمل، والدخول على الفيس بوك؛ لرفض كل طلبات إضافة الأصدقاء الجدد، والإجابة بـ«لا» على دعوات الجروبات التي تصلك.

تسمع صوت أحد زملائك، يسير في الطُرقة بين المكاتب:

- «أنا رايح عند أبو قفص»، فتتبعه.

السكرتيرة ورجل الأمن لا أثر لهما، تنزل دون أن تستأذن أحدًا، يدخل من شارع جانبي محشور بين عمارتين، ويتحرّك في اتجاه عجوز مهدّم يقف جوار «عجلة»، على مقعدها الخلفي «قفص» قديم، يبدو منظره غريبًا وسط المحلات الراقية والعربات الفاخرة، وكأنه ظلٌّ مُهمل في لوحة جميلة، على قدر ما يمنحها بعض التشويه على قدر ما يجعلها حقيقية وممكنة!

يمدّ زميلك يده ويأخذ ساندويتشًا وسميطة وثلاث بيضات، فتمد يدك وتأخذ مثله، يلتفت إليك، ويبدأ حديثًا مكررًا، يشكو من المدير وضغط العمل وزوجته التي حملت في الطفل الخامس، ويُخبرك عن موظفة قسم التسويق التي يحلم بالنوم معها، ولكنها لا تفكر إلا في المحاسب الشاب الذي تسلّم عمله منذ شهرين، وترتدي له كل يوم ثوبًا مختلفًا.

لا تُعِيره انتباهًا، تلتهم وجبتك وتزيد عليها بيضة رابعة تغرقها في الملح والفلفل، ثم تُخبره فجأة عن عرض رائع في «مارينا»، فيلا بحوض سباحة وحديقة واسعة بعشرة ملايين فقط، معها كوبون للسحب على سيارة آخر موديل.

تفتح حوارًا مع الرجل العجوز، فيخبرك بأنه من «دمياط»، ولديه ولدان، طبيب ومحام، تقول له إن والدك مات بسبب سوء تشخيص طبيب، والمحامي الذي وكّلته لتطليق أختك من زوجها -نصف البني آدم/ نصف الخنزير- باع ملف القضية وأخذ أتعابه خمسة آلاف جنيه.

تعزم على زميلك بدفع الحساب، فيرفض، ويصر على أن يحاسب لكليكما، فتتركه يدفع وتعود.

إحساس الشبع يجعلك أكثر خفة ورغبة في الحركة، فتقرر أن تُمضي بعضًا من وقتك غير الثمين بالمرّة في ممارسة واحدة من هواياتك الأثيرة: «التوهان»!

تمـدّ الخطـوة وراء الخطـوة في شـارع سـوريا، مُخلّفًـا وراءك حـي المهندسين الراقي، متجهًا لنهاية شارع جامعة الدول العربية مع نهاية شارع السودان، تدريجيًا تتغير ملامح البشر المحيطين بك من النعومة والدعة إلى الخشونة والتيقظ، تغلُب الجلاليب والترنجات والملابس البلدي والروائح المقتحمة على البدل والجينز والسيمي فورمال، تتبدل المحلات، فيختفي «مترو» و«شاورمر» و«سورس» و«لاجونا»، وتظهر الأدوات الصحية والكهربائية والأحذية وقطع غيار السيارات والبقالة والفواكه في الواجهات، وتتراصّ على الجانبين محلات الفول والكشري وعربات اليد التي تبيع «الترمس» و«البطاطا» و«حَبّ العزيز»، وتطاردك عربات الكارو والميكروباص وباعة الصحف والمناديل في إصرار، أهلا بك في «أرض اللواء»!

أول مرة قادتك قدماك لهذا المكان تعجّبت، كيف يمكن أن يتجاور حيّان على هذه الدرجة من التناقض، ولا يفصل بينهما سوى شارع طويل، وبضع دقائق؟! لكن هذه هي مصر، التي ذوّبته في بوتقتها الهكسوس واليونانيين والبطالمة والرومان والفاطميين والمماليك والعثمانيين والإنجليز والفرنسيين، وكل من أتاها طوعًا أو كرهًا، والتي لا تكفّ يومًا عن إبهارك بقدراتها السحرية!

لم تندهش كثيرًا عندما علمتَ أن أرض اللواء، كانت منطقة زراعية شاسعة، تبرّأ منها فلاحوها مع طلّة أول جنيه لوّح به العائدون من الخليج، فبوّروها وأسلموا عنقها لهم عن طيب خاطر، ويومًا بعد يوم يجور الطوب الأحمر والرمل والزلط على الخُضرة ورائحة الورد التي كانت تفوح من المكان، حتى جاء لواء شرطة كبير واستوطنها، فبذل له

السكان ماء عيونهم اتّقاء لبطشه وطمعًا في حمايته، وتقرّبوا إليه بإطلاق اسمه على المنطقة!

تعوّدتَ أن تأتي إلى هنا كثيرًا، كأنّما تهرب من «المهندسين» بأناقتها المُفرطة، وأرستقراطيتها المُبالغ فيها، وتُخبّئ وجهك في البيوت المتلاصقة والصَخب، وتحتمي بالبسطاء الساعين على لقمة العيش من حولك، لتشكّلوا معًا جبهة موحّدة ضد تغوّل المدينة، وتبرّجها، فلم تكن كفئًا أبدًا طوال عمرك للمواجهات المنفردة.

تعود للمكتب، رجل الأمن لم يظهر بعدُ، تنادي عليه بصوتٍ عال، فيخرج إليك مهرولاً من «الحمّام»، يُنشّف يده في فوطة متهالكة ومليئة ببقع حمراء وصفراء وبنية، تضع أمامه ساندويتشًا اشتريته له، فيلهج بشكرك، تومئ له بابتسامة، وتصعد لمكتبك، وقد أصبحتَ أكثر قدرة على العمل.

(٣)

كنتَ تدرك أن تغيير مسارك والحصول على عمل جديد في القاهرة لن يكون سهلاً، استمرّ البحث أيامًا وشهورًا من الإبحار عبر الإنترنت ومواقع التوظيف وشراء «أهرام الجمعة» وسؤال الأصدقاء، حتى ظفرتَ بمقابلتك الأولى.

يومها استيقظتَ مع أذان الفجر، وحرصت على أداء الصلاة جماعةً في المسجد على غير عادتك، وأكثرتَ من الدعاء والابتهال، وركبت «البيجو» من موقف «شربين» وفتحت مصحفك الصغير، وبدأت في القراءة من أول سورة «البقرة» بصوت رخيم، وعيناك تختلسان النظر لمقاعد العربة التي تمتلئ ببطء، دون مراعاة لقلقك ولهفتك ورغبتك في الإحساس بالحركة، في النهاية تقرّر دفع أُجرة النفرين النّاقصين حتى لا تتأخر عن موعدك.

كانت هذه هي زيارتك الأولى للقاهرة، بعيدًا عن رحلات المدرسة للأهرامات وحديقة الحيوانات بالجيزة وحكايات الأصدقاء وبعض الإطلالات الخاطفة على معرض الكتاب، كنتَ تقابلها وجهًا لوجه لأول مرّة، وبلا رفيق ولا حائل، لم تحبّها ولم تكرهها، أجّلت حكمك عليها لحين يتعرف كلاكما إلى صاحبه عن قرب.

ترقبّك وسرحانك في الأسئلة التي يمكن أن تُوجّه إليك في أول اختبار لمعلوماتك منذ انتهتْ دراستك، منعاك من الإحساس بالحرّ والعرق وطول الطريق وزحمة البني آدمين، حتى توقّفَت العربة قرب محطة مترو «كلية الزراعة» بشبرا، فنزلت منها وتمشّيت قليلاً حتى وصلت للمترو.

كان العنوان في «المهندسين»، شارع سوريا، برج طويل وأسانسير فخم وبشر صاعدون وهابطون، ومكتب مكتظّ بالساعين لنيل وظيفة، وموظفون نالوها بالفعل وتبدو على وجوههم ظلال ضجر وملل ورغبة في مفارقتها!

انتظرتَ طويلاً، ساعتين أو ثلاثًا، حتى وجدتَ نفسك في النهاية أمام الرجل الذي يُدخَن «البايب»، ويرمقك من تحت نظارته السميكة بقرف، فعرفت أنه المسؤول الآن عن تحديد مستقبلك.

لم ينتظر حتى تلتقط أنفاسك، كان وراءه العشرات غيرك، لذا دخل في الموضوع مباشرة، وانهال عليك بالأسئلة التي لم تعد تذكرها الآن، أغلب الظن أنه كان يريد إراحة ضميره فقط، قبل أن يُخبرك بأنه لا يمكن تعيينك في وظيفة «مراجع لغوي» لصغر سِنّك، ثم يمدّ يده ويزيح من أمامه شهادات الكمبيوتر وصور المقالات التي نشرتَها في صحف ومجلات إقليمية وحرصتَ على عرضها عليه لتزكيتك.

يسألك عن أي شيء آخر تجيده، فتستأذن منه لتقوم، يستمهلك: «ليك في شغل المراجعة اللغوية؟»، تخبره أن هذا أحب شيء إلى قلبك، يُلملم أوراقك، ويضعها في أحد أدراج مكتبه، فتنهض، وتسلّم عليه:

- «هنتصل بيك».

لم تكن مُتعجّلاً للرجوع لبلدتك خالي الوفاض، فقررتَ المبيت عند أحد أصدقائك النازحين من «شربين»، خاصة أن وراءك مقابلة أخرى بعد يومين.

تتصل به، فيرحّب بك، ويعطيك العنوان، وينتظرك أمام الشارع الذي يقطن به لكيلا تتوه، ويصرّ على أن يحمل حقيبتك بنفسه وهو يتقدّمك للشقة.

من اللحظة الأولى لم تشعر بالراحة من ازدحام الشقة التي يقيم فيها مع أربعة آخرين، ورؤية معظمهم يرتدون الملابس الداخلية ويتبادلون الألفاظ البذيئة، ويضحكون بصخب، لكن لم يكن أمامك خيار آخر!

تضع حقيبتك الصغيرة، وتستأذن بحجّة وجود مشوار لا بدّ من القيام به، وتفرّ إلى براح الشوارع التي كانت ممتلئة رغم تأخّر الوقت، تقرر أن تتقرب إلى القاهرة قليلاً وتتحدث إليها، محاولاً الإحساس بالألفة في حضرتها، من يدري، لعلّها تصبح مدينتك في يوم من الأيام!

تقودك قدماك بالفِطرة إلى أقرب مكان يوجد به ماء وضفاف، كوبري «قصر النيل»، فتتوه في الموجودات: ليل، وقمر، ولفحة برد مسائية، وثنائيات غائبة في حوارات وأحلام وذكريات ومواعيد ووعود لن تتحقق في الغالب، بائع ترمس، وسعال بعيد مشروخ، وصوت فرملة سيارة مسرعة، متسولة طاعنة، وأطفال يبيعون مناديل وفوطًا للسيارات وزهورًا للمحبين، عربة «حمص الشام»، وعربة بطاطا.

تتذكر آخر مرة سرتَ فيها على كورنيش، «المنصورة» منذ أربع أو خمس سنوات، يوم أربعاء، في شهر ما، «فاطمة» والليلة قبل الأخيرة في قصة امتدّت بطول سنوات الجامعة والشباب، لم تكن شهيّتك تسمح بأي شيء يومها، اشتريتَ قطعتي «آيس كريم»، دفعتَ فيهما آخر ما تبقّى في جيبك، وذابت قطعتُك دون أن تلمسها، في حين أكلتْ هي من قطعتها قضمة أو قضمتين، ثم ألقت بها في أول صندوق قمامة صادفكما، وعندما حاولتَ التقاط أي طرف خيط لفتح حديث ولو مكرر، فشلتَ!

استغرقتما في مراقبة نهر السيارات المندفع على الجانب غير مبالٍ بكما، ومتابعة خيوط الضوء الواهنة التي تنزل من السماء على مهل، وتنعكس على الوجوه والأشياء.

قلت لها فجأة:

- «يمكن...

قاطعتك بنظرة، ووضعتْ يدها الرقيقة -التي هِمتَ بها حبًا- على فمك، فانتهزتَ الفرصة وطبعتَ عليها قبلةً ملهوفةً، جعلَتْها تنتفض وتسحبها بسرعة، وتزفر زفرة حارّة، تخيلتَ معها أن في صدرها مِرجلاً مشتعلاً.

هذا أنسب وقت لتحرير الدموع وزفرات الأنين والألم، تتركك فجأة، وتندفع عبر الشارع بلا حذر، تُجرجر خلفها خيطًا من عطر لا يزال في أنفك إلى اليوم، تركب تاكسي، ينطلق بها فورًا، دون كلمة وداع أو أمنية طيبة، تلمح نمرة التاكسي وتسجّلها -كعادتك- في ذاكرتك،

وتحمد الله أنك لم تضطر لدفع الأجرة، فلم تكن لتتحمّل مزيدًا من تشويه صورتك أمامها!

تُلقي نظرة أخيرة على الموج الذي بدا هادئًا ميتًا لا يُعير الرياح التي بدأت تشتدّ بالاً، وتلمح بضع سمكات صغيرة هامدة على الشط، تَسُوق قدميك وتدفعهما لموقف السيارات، وتنتظر، علّك تلمح أحد معارفك، فتقترض منه أجرة العودة لـ«شربين»، وعندما لا تجد، تجلس على كرسي حجري مجاور، وتتسلّى بعدّ الذرات في كومة تراب أمامك.

بشر تذهب وتجيء، وعقارب ساعة لا تكفّ عن الجري والهرولة، وآخر سيارة لهذا اليوم تهمّ بالرحيل، فتذهب للسائق وتُخبره بأنك لا تملك نقودًا، وتعرض عليه ساعتك رهنًا، فيظنّك نصابًا أو لصًا، فينهرك ويرفض السماح لك بركوب سيارته، ويندفع بها في حدّة بعد أن وضع الركاب بعضهم فوق بعض، فتعود لكرسيك وكومة ترابك، وتُخرج ورقة من جيبك وتتسلى بكتابة رقم التاكسي -الذي مضى بحلمك الثمين- بجميع صوره الممكنة!

تذهب لمقابلة ثانية، وسط البلد هذه المرة، العدد كبير كالعادة والمكتب مزدحم، تملأ «أبلكيشن» وتُسلّم صورة من أوراقك للسكرتيرة، وعندما تقف في الركن، يمد جارك يده إليك بسيجارة، فتأخذها، لكنك ترفض أن يشعلها لك:

- «ما بدخّنش».

يسألك في دهشة:

- «أمال خدتها مني ليه؟».

فتُخرجها من جيبك وتضعها في يده، ليبدأ في التدفق بحديث ممل عن حياته منذ كان نطفة في رحم أمه، واعتقاده أن العالم كله ضده، فالبرجان سقطا في أمريكا؛ لأنه تعرّف بأمريكية كانت تنوي الزواج منه وأخذه معها، وأمريكا ضربت العراق؛ لأن خاله المقيم هناك -من عشرين سنة - كان ينوي أن يرسل له عقدًا، واشتعلت المقاومة في لبنان لأنه كَلف أصحابه -في مطابخ المطاعم وخدمة الفنادق هناك - بالبحث له عن عمل!

بعد ذلك بدأ يحدثك عن أمَه التي نزلت «شارع الهرم» للبحث عن عمل، وأبيه الذي لا يستيقظ من النوم -بعد المعاش المبكر- إلا للطعام وقضاء الحاجة!

تضع سماعة الموبايل في أذنيك، وتدير رأسك بعيدًا، فيهزك من كتفك ليلفت انتباهك ويسألك عن اسمك، تخبره بأول اسم يرد إلى ذهنك، وتتشاغل بإخراج ما في جيبك الأيمن ووضعه في الجيب الأيسر، ثم في جيب القميص!

ينادي السكرتير اسمك، فتنظر بطرف خفي إلى جارك الذي اندهش من استجابتك، وتتّجه لغرفة المقابلة، مكتب فخم وديكورات تكلفت أكثر مما صرَفْتَهُ طوال دراستك في كلية التربية، مقدمات مُملّة، شركة عريقة، موقع مهم على خارطة المواقع الإليكترونية، أفضل الكفاءات في مصر، نريد أن نظل في المقدمة، وفي النهاية:

- «نريد مدقق لغة إنجليزية».

تخبره أنك خريج قسم لغة عربية، وأن هذا مذكور في سيرتك الذاتية، وفي «الأبلكيشن» الذي ملأته على مكتب السكرتيرة، ينظر بدهشة للأوراق التي أمامه، ويبتسم في حرج، تنهض، فيستوقفك:

- «بتعرف تشتغل فوتو شوب».

تخبره أن هذا أحبّ شيء إلى قلبك، يلملم أوراقك، ويضعها في أحد أدراج مكتبه، فتنهض، وتسلّم عليه:

- «هنتصل بيك».

(٤)

ينقطع النور في المترو، فينزل الجميع للحاق بالقطار الآخر على بُعد ثلاث أو أربع خطوات، فتجلس وحدك في الظلام، تتأمل المعالم والرؤى والحركات، لم تهتم بمعرفة اسمِ المحطة، كففتَ عن ذلك بعد أسبوعين من مجيئك للقاهرة، أصبحتَ تقرأ الاسم في وجوه الركاب الصاعدين والهابطين، والكتابات والرسومات المحفورة على الجدران خارج النوافذ، وشكل السلم، وحماس القطار للوقوف لثوانٍ أو المرور بأسرع ما يستطيع.

يأتي أحدهم ويسألك عن سر جلوسك، فلا تردّ عليه، وتدير وجهك للناحية الأخرى، وتنظر على مدّ البصر، ظهور وأجسام تترجرج وتتدحرج مندفعة في اتجاه الخروج من تحت الأرض وركوب السلالم الكهربية، يرفع العسكري صوته أكثر، فتنهض وتلقي عليه السلام بحروف غير مفهومة، وتسأله عن شيء بلا معنى تقريبًا، ولا تهتم بسماع رده.

تجلس على المحطة شبه الفارغة بجوار فتى يقرأ في «كفاحي» لهتلر، تنبّهه للتذكرة الواقعة جوار قدمه، فيلتقطها ويشكرك، يأتي القطار، فتنتظر حتى يركب الجميع، وتركب في آخر لحظة، ثم تضع قدمك بين

مصراعي الباب، لتسمع صوت الصافرة المميز، وينفتح الباب، ثم ينغلق بعد ثوانٍ.

مقاعد فارغة وصوت بكاء طفل وحفيف تقليب أوراق كتاب وجريدة تسقط على الأرض وحصاة صغيرة تصطدم بنافذة القطار، تقف جوار الباب، على الرغم من وجود أكثر من مقعد فارغ، تنزل في أول محطة، وتجلس لحظات على مقعد مليء ببقع زيتية وخدوش عميقة، ثم تعود لركوب القطار التالي، هذه المرة تجلس جوار فتى سمين، وتواجه نظراته المشمئزّة بابتسامة لزجة وصفراء، وعندما تأتي محطتك، تنزل في هدوء، وتُخرج تذكرتك وتضعها على سطح الماكينة، ثم تقفز من فوق الحاجز، فيهرع إليك موظف يرتدي بدلة زرقاء أكبر من مقاسه ويُمسك بك، تشير نحو التذكرة، وتتركه يقرأ ما عليها، وتفر.

«المرج» شعبية وناسها يشبهون ناسك الذين تركتهم خلفك، تتصل بصديقك الذي واعدك ها هنا، موبايله مغلق، تتصل على تليفون البيت، لا أحد يردّ، الساعة التاسعة مساءً.. هل ينام مبكرًا هكذا؟

تدخل أحد الشوارع، وتستوقف أناسًا لا تعرفهم وتسألهم عن عناوين لا تريد الذهاب إليها، فيصفون لك المكان بدقّة وصبر، لدرجة أنك تفكر في تجربة إحدى هذه الوصفات ذات يوم، لعلك تكتشف مكانًا لم يُكتشف بعد!

تدخل مطعم «فول وطعمية» وتطلب ساندويتشًا، ثم آخر، وآخر، تقضم من كل واحد قضمة أو قضمتين، ثم تدفع الحساب، وتترك بقشيشًا ضعف ثمن الوجبة، تجرّب الاتصال بصديقك مرة أخيرة، لا

يردّ، تعود لمحطة المترو، وتتعمّد المرور من أمام الموظّف الذي فررتَ منه، فينظر إليك بسخط، تبتاع تذكرة وترفعها أمام عينيه، تُدخلها في الماكينة وتعبر بهدوء، تفتش بعينيك عن سلم كهربائي، وعندما تطمئن لوجوده، تذهب ناحية السلم العادي وتستخدمه!

تركب آخر عربة في القطار، تترك كل المقاعد الفارغة وتجلس جوار فتى يلتصق بفتاته، وتخرج موبايلك، وتشغل أغنية أجنبية لا تفهم منها شيئًا، ولم تحبّها قط، ومع ذلك، ترفع الصوت وتتحرك في مكانك بعشوائية، وتسعل كل دقيقة.

تصعد فتاة جميلة وتجلس أمامك، عيون ملونة، وشعر مفرود أسفل قُبّعة رقيقة، تضع رجلاً على رجُل، وسماعة الموبايل في أذنها، تُسند رأسها على العمود في أول مقعدها، وتغلق عينيها، وتنام.

تحدّق فيها، وتراقب اختلاجات العينين واهتزازات الجسد مع اندفاعات القطار المجنونة، تحاول معرفة الأغنية التي تسمعها، فلا تستطيع، ترفع الموبايل وتفتح العدسة، وتتظاهر بالاتصال بأحدهم، يسطع الفلاش مرة، ومرة أخرى، فتنتبه الفتاة، وترمقك بغضب، وتُنزل رجلها وتعتدل، وتهم أن تتشاجر معك، لكنها تتراجع وتصمت، وتظل منتبهة حتى «رمسيس»، تنتظر حتى تنزل، ثم تنزل بعدك، فتنحني في جانب من الطريق، وتفكّ رباط حذائك، ثم تربطه مرة أخرى، حتى تتجاوزك. تُهرول خلفها، وتهمس وأنت ماضٍ في طريقك:

- «الكاميرا بتاعتي باظت من شهرين.. بتطلع كل الصور نيجاتيف».

(٥)

تراقبها -من وراء النظارة - وهي تُخرج الموبايل فور ركوبها الأتوبيس المتجه إلى «رمسيس»، الفتاة البيضاء الساحرة ذات الإسدال الأسود، تفتح تطبيق أذكار الصباح، وتقرأ بصوتها الهامس الشفيف، وبعده تطبيق المصحف الشريف الذي تتساقط دموعها مع كل آية من آياته. وعندما تأتي محطتها، تنزل، مُخلّفة وراءَها عطرًا ناعمًا نفّاذًا، تعوّدتَ أن تستدعيه كثيرًا في وحدتك، بعد منتصف الليل وكوب الشاي الدافئ وبسكوتة أو اثنتين، وتتحدث إليه عن همومك ومشاغلك، فيلفّ قلبك بالسلوى ويُطبطب رأسك في رفق، وربما -بالذات في ليالي البرد الشديدة- يُقبّلك بين عينيك حتى تنام.

تشعر بالوحدة وبالوجوم عندما لا تجدها اليوم، وتحاول تركيب ملامحها من الذاكرة، فتنجح بالكاد، تسمع آيات من الذكر الحكيم؛ فتتوتر، وتنظر حولك، يعلو الصوت أكثر عندما يدير السائق مؤشر الراديو قليلاً، فتنطفئ.

لم تحاول ولا مرة واحدة أن تتحدث إليها، كنتَ تخشى ردّ فعلها، وعقمك الكلامي كلما ارتفعتْ عينا أنثى في مواجهتك، وتكتفي بانتصاراتك الساحقة على كل مَنْ تنجح في استحضار ملامحها

لمشاركتك بطولة حلمك الخيالي المعتاد، وقت أن تُسلم الجسد المكدود لجنّة الفراش الوثير.

لكنك في الأيام الأخيرة تعوّدت أن ترى حتى بطلة الحلم تتباعد عنك، وتختفي في زحام المارة ومداخل العمارات القديمة، وعندما تطلبها على الموبايل، يرد عليك صوت غريب وينهرك، ثم لا تلبث أن تجدها أمامك فجأة، بلا سابق ترتيب، تأتي معك للبيت بلا دعوة، وتفتح بمفتاحها، وفي حجرة النوم تُخرج من حقيبتها فتى رقيعًا، تُصرُ أن يحلّ محلك في الفراش وإلا غادَرَتْ، تُلبسه «بيجامتك» بيدها، وتغيب معه في قبلة طويلة ومهلكة، ثم يصعدان للفراش ويتركانك واقفًا أمامهما، تراقب وتسمع وتتحرك بالإشارة وبالهمسة وبالظن لتلبية كل طلباتهما.

تعودتَ أن تغلق عينيك بمزيد من القوة عندما يفاجئك هذا الحلم، ثم تهبّ من نومك وتشرب كوبًا من الماء المثلج في عز البرد، وإذا كنت في الصيف، فإنك تشعل السخان وتحظى بدش ملتهب، لكن بعد فترة أخرى، لم يعد هذا الحلم مقتصرًا على لحظات النوم، وأصبح يفاجئك في الشوارع المنسية والحدائق المليئة بالناس وفي المترو ومكتبك وعلى شاشة الكمبيوتر والصفحة الأولى من الجرنال، مهما كان اتساع عينيك ويقظتك المفرطة، ولم تكن تفعل شيئًا، إلا عدّ ضربات قلبك المتسارعة، وحبس الزفير مرة، والشهيق مرة أخرى، ثم إطلاقهما في قوة.

يوم الأربعاء، تتأخر في عملك، ليرضى عنك رئيسك الساهر في «شِيفت» المساء، ويكتب تقريرًا جيدًا، مع أنك منذ الصباح لم تفعل أي شيء، في العاشرة مساءً، تغلق أدراج المكتب المفتوحة وتفتح المغلقة، وتعمل

ريستارت للكمبيوتر، وتترك النور مضاءً لتتشاجر في الصباح مع «الأوفيس بوي»، تستدعي «الأسانسير»، وعندما يصل، تتركه وتنزل السلم.

تشعر برغبة حارقة في إنفاق كل ما في جيبك على أشياء لا قيمة لها، تشتري كوفية بيضاء، وأربع علب مناديل ورقية، وعلبة لبان من النوع الذي لا تحبه، وفرشاة أسنان وأقراصًا لمنع الحمل، وتذهب لـ«كنتاكي التحرير».

تلاحظ هذا الطفل المصوص الأصلع تمامًا الجالس في الركن جوار المطعم الفاخر، ملابسه رثّة وملامحه غائمة كأنما لم تُخطَ بعد، أمامه كراسة وكتاب يشخبط فيهما ويرسم دوائر متداخلة، يتجاوزه الجميع كأنه لا أحد، فتفعل مثلهم، وتطلب وجبة عائلية، تنوي ألا تأكل سوى نصفها، تحملها بيدك وتصعد للدور العلوي، لتشاهد العشاق المتظاهرين بأنهم هنا من أجل الكولونيل «ساندرز» وخلطته السرية.

تلمح الفتاة البيضاء الساحرة بعد غياب امتد ثلاثة أيام كاملة، فتشعر برعشة المفاجأة، «جينز» و«ستوميك» وشعر ثائر مفرود وعدسات لاصقة وضحكة عفيّة، معها شاب أسمر رقيع -أين رأيته من قبل؟!- يدفن كتفه في كتفها ويميل على أذنها ويهمس!

تنتقل إلى مائدة مجاورة، وتتنصّت، فلا تسمع شيئًا، وتنسى الدجاج المحمرّ المستسلم في الطبق أمامك.

بعد قليل، تنهض الفتاة، ويضع الشاب الرقيع يده على كتفها، ويمررها في حركة سريعة على باقي جسدها من الخلف، فيضحكان، تنهض خلفهما، وتمر على الولد الأصلع الممصوص، فتتوقف الفتاة فجأة، وتُخرج من حقيبتها عشرين جنيهًا كاملة، وتمنحها للولد الأصلع، ثم تتأبّط ذراع الفتى الرقيع الذي يرفع يده ويضعها على كتفها ثانية، يركبان سيارة حمراء بداخلها مجموعة شباب آخرين، وترتفع الضحكات مختلطة بصوت موتور السيارة التي تنطلق بسرعة.

تعود للمطعم، فتجد العامل يتخلّص من طعامك، فتحتد عليه، وتطالبه بوجبة أخرى، يحضرها لك مُحمرّ الوجه وحانقًا، فتتركها دون أن تمسها، وتنهض.

تراها في اليوم التالي، تقرأ أذكار الصباح وتتنهد، ومع القرآن الكريم، تدمع عيناها، فتنزل وراءها في محطتها، وتحتكّ بها عند أول منعطف، بفجاجة وقسوة، فتنظر نحوك بدهشة، وتنظر نحوها باستهتار، ترفع صوتها بالسباب والشتيمة، وتلوح بأصابعها في حركات مبتذلة، فيلتف حولك الناس ويأتي حارس أمن من بناية قريبة، فتشير نحوك وتصرخ: «بيعاكسني»، فترتفع النظرات والأيدي والحناجر وبعض الأحزمة الجلدية ذات القطع المعدنية المدببة، لنصرة الأنثى المهيضة البريئة المرتعشة الباكية في هستيريا.

(٦)

تتقلّب في فراشك وأنت تشعر أن بينك وبين النوم كالذي بين القاتل وابن القتيل! تُغمض عينيك بقوة وتحاول الاسترخاء، تفشل، تفتحهما، ثم تزيح الأغطية يائسًا وتنهض، تُلصق ظهرك بالحائط المجاور للفراش، تضم ركبتيك إلى صدرك، وتحدق في أصابع قدميك، تنتبه للأظافر التي لم تُقلّم من زمن، وتبحث عن مقص، وعندما تجد واحدًا صدئًا، لا يعجبك لونه الأسود، فتضعه جوار الفراش، وتحاول مساواة ظفر الإصبع الكبير بيدك، تملّ، تحضر جوربًا، وترتديه، تلاحظ الثقب الموجود في مقدمته، فتضبطه بحيث يسمح بخروج إصبعك الكبير منه.

تحدّق في السقف الذي يمتد شرخ كبير وغائر بطوله، فيقسمه نصفين، بقع داكنة في الأركان وبقايا أسياخ حديدية بارزة، وطوب أحمر وأسمنت مُسْوَدّ، وبرص شارد يسرع بالاختباء في فجوة تنتبه - لأول مرة- أنها موجودة في هذا المكان.

أذان الفجر، مُنغّم وهادر، تتخيل وجه أمك الذي يقطر منه ماء الوضوء، وهي توقظك للصلاة، وعندما تتكاسل، تزيح من فوقك الأغطية، فتقوم مضطرًا، وتتوضأ، تُبدل ثيابك، وتقبّل يدها، ثم تضع كوفية ثقيلة وطاقية على رأسك، وتخرج.

فَجْر القاهرة بلا ميزة خاصة كفَجْر مدينتك، عندما كان الناس ينهضون، ويوقظون بعضهم بعضًا، ويضيئون أنوار البيوت الخارجية، ويذهبون للصلاة جماعات.

تتمنى استعادة هذه اللذة، ولو لمرة، فتنهض، وتقاوم البرد الشديد بالحركة المتسارعة، وترديد بعض الأدعية وآيات القرآن، تتوجّه للزاوية القريبة، لا أحد في الشارع، عدا شابين يشربان السجائر، وترتفع ضحكاتهما المخلوطة بكلام خارج عن زميلتهما في كلية الطب، تُسمّي الله وتخلع حذاءك وتدخل البيت المقدس، وتجلس في ركن قصي، نجفة متوسطة الحجم تحمل عشرات المصابيح الصغيرة، الإمام وعامل المسجد وعابر سبيل وثلاثة أعمدة ومكتبة وعدة مصاحف وكرسيان، «الله أكبر الله أكبر»، «السلام عليكم ورحمة الله».

يسأل عابر السبيل:

- «هو فيه مسلم هيخلّد في النار يا مولانا؟».

- «العاصي هيقعد في النار لحد ما يدفع تمن ذنوبه، وبعدين رحمة ربنا هتوديه الجنة» يجيب الشيخ، ويبتسم، فينظر عابر السبيل ناحيتك، ويبتسم.

تقوم لتتفحص الكتب الموجودة في المكتبة، «القرطبي» و«الجلالين» و«سيرة ابن هشام» وكتاب «التربية الإسلامية» للصف الثاني الثانوي و«معجزة القرآن» للشعراوي، يُخبرك العامل أن موعد الإغلاق قد حان، فتتمتم بكلمات مبهمة وتتجه للباب، لكنك لا تجد حذاءك، ولا عابر السبيل!

صوت أحد الشابين يعلو بعد وصلة سعال متصلة، وهو يخبر زميله عن الموعد والمكان الذي سيقابل فيه زميلته طالبة الطب، ويطلب منه تحضير الكاميرا لتصويرها.

(٧)

تفكّر كيف ستعيش في القاهرة، ومعلوماتك عنها معدومة، وأنت لم تتغرّب، ولم تدخل الجيش، ولم تعش بعيدًا عن أسرتك أكثر من ثلاثة أيام، كنت تُقلع فيها عن شرب الشاي؛ لأنك لا تعرف كيف تُعدّه، أو تدخل أي كافيتريا وتدفع فيه أضعاف ثمنه!

يتصل بك خالك، ويعرض عليك الإقامة لديه، تحس أن أمّك وراء هذه المحادثة، فتكذب عليه وتخبره بأنك عثرت على غرفة مع صديق، ودفعت إيجار شهر مقدمًا بالفعل، وتتهرّب منه لتكون على حريتك، وتبتعد عن ابنته التي تبحث عن عريس.

يسألك أسئلة معتادة عن الأهل الذين رحلوا، والذين يكابدون الدنيا، فتُجبه إجابات باهتة، مكرّرة، وخالية من الشعور، فيُغلق الهاتف على وعد باتصال لن يتم أبدًا.

كل أصدقائك الذين سبقوك للعمل والجري وراء لقمة العيش في المحروسة، أخبروك بأنهم سيبحثون لك عن سكن معهم، أو قريبًا منهم، لكن لم يتصل بك أحد بعدها، وعندما ضغطت على نفسك واتصلت بهم، لم يردّ عليك أحدهم، باستثناء «الحسيني» الذي يعمل في مصنع أحذية في العاشر، والذي أخبرك بأنه ترك العمل والسكن، ويرجوك أن تبحث له عن عمل معك.

تتصل برقم مُدوَّن على جدار مهدم مكتوب أسفله «سكن طلبة»، فيردّ عليك صوت أنثوي مائع وفيه غنج، تسأل عن غرفة أو سرير، فيسألك الصوت:

«مَيّتك كام في الشهر؟»

تخبرها بأنك تريد أن ترى الغرفة أولاً، فتحدّد لك موعدًا.

البيت في «إمبابة»، شارع طويل مسدود النهاية، يستقبلك في بدايته كوم زبالة ونساء جالسات أمام بيوتهن، يثرثرن ويضحكن على نكات بذيئة، ويغسلن ملابس قديمة وممزقة في «طشوت» حال لونها، ويلقون بالمياه تحت أقدام العابرين، تفلت بمعجزة من البلل، وتسأل عن البيت رقم «١٣»، فتشير طفلة حافية عرجاء إلى بيت يبدو آيلاً للسقوط، عند النهاية المسدودة للشارع.

لا جرس ولا مطرقة حديدية يمكن استخدامها، لا تدري بماذا تنادي، ينقذك شاب أسمر نحيل، يظهر خلفك فجأة، يلمس كتفك ويقول لك:

- «حضرتك عايز مين؟»

تلتفت إليه وتخبره بأنك تبحث عن غرفة وتريد صاحبة البيت، فتلمع ابتسامة باهتة على شفتيه، ويتأبط ذراعك ببساطة ويقول لك:

- «اتفضل .. أهلا وسهلاً».

داخل البيت أسوأ من خارجه، سلالم شديدة الارتفاع، مكسورة ولا لون لها، وعندما تضع رجلك على أول درجة محاذرًا أن تقع، تبدو كمن يتسلق لا يصعد، رسومات بالطبشور والأقلام الملونة على الجدران،

قلوب وأسماء وأرقام تليفونات وحيوانات، وأشكال هلامية معقدة لا يمكن أن يعرف أحد ماذا تعني، حتى مَن رسمها نفسه!

الدور قبل الأخير، تتوقف لتلتقط أنفاسك، في حين لا يظهر على رفيقك أثر التعب، يبدو أنه تعوّد ذلك، يشير إلى الباب الحديدي الصدئ، ويطرقه برفق، فتسمع نفس الصوت المائع، وتفاجأ بصاحبته عندما تفتح لك!

امرأة في الخمسين من العمر على الأقل، ترتدي قميصًا ضيقًا وشفافًا، مفتوح الصدر، تلطخ وجهها بماكياج رخيص ذي رائحة نفّاذة وخانقة، لا تشعر بالارتياح لمنظرها، فتقرر ألا تستغرق المقابلة كثيرًا، قبل أن تعلن رفضك بأي حجة، وتنسحب.

يقول رفيقك:

- «الأستاذ عايز يسكن».

فتضع يدها على كتفك، وتسحبك للداخل بحميمية، وتقول:

- «اتفضل.. يا دي النور!»

تشعر بالحرج، وتحاول أن تتخلص من قبضتها، فيبتسم رفيقك ابتسامته الباهتة من جديد، وينسحب ويغلق الباب خلفه.

تصدم أنفك رائحة طبيخ لا تدري كنهه، لكنه منفّر، يقلب معدتك التي لم يدخلها منذ الصباح سوى كوب الشاي الذي تحجّجت بشربه في كافيتريا المحطة، لتجلس أمام البنت الأجنبية ذات الجوب القصيرة، التي كانت تأكل الجاتوه، وتضحك بلا مناسبة، لم تناقش الجرسون في

الثمن المبالغ فيه، فقد كنت تراقب ابتسامته الساخرة وتشعر أنه يفهم تمامًا لماذا دخلتَ ها هنا.

تقاوم الغثيان بتذكّر أمك التي كانت تقرأ أفكارك، وتعدّ لك كل ما تشتهي دون أن تفتح فمك، وعندما تتدلل عليها وترفض ما أمامك، تُسرع وتعد لك غيره في ثوانٍ، لدرجة أنك كنت تتصورها تستخدم عصا سحرية أو تعويذة ما لتحقيق كل رغباتك بهذه السرعة!

تجلس «الخمسينية» على كرسي معدني أمام ترابيزة عليها عيدان الملوخية التي كانت منشغلة بتخريطها قبل أن تأتي:

- «كنت عايز أتفرج ع الأوضة».

- «مستعجل ليه يا نور العين.. ما لسه بدري».

- «معلش أصل عندي شغل».

تسحبك من يدك في بساطة، تفتح الباب، وتصعد للسطوح، عشش دجاج وبرّاجة حمام وكراكيب متناثرة وطبق دش وإريال تليفزيون وكرة قديمة مثقوبة وبقايا دراجة ٢٨، تمد يدها في صدرها وتخرج رزمة مفاتيح، تغمز بعينها اليسرى، وتختار مفتاحًا رفيعًا وصدئًا، تديره في القفل، وتزيح مزلاجًا حديديًا وتفتح الباب بصوت صرير مزعج، ثم تشعل النور، وتدعوك للدخول.

كنبة متهالكة في الركن، مفروشة بملاءة بنية ممزقة في أكثر من موضع، عليها بقع مختلفة الأشكال والأحجام، وقفص يُستخدم كمنضدة، عليه لوح أبلكاش مكسور، فوقه كوبان وقُلة وبراد شاي قديم نائم على جانبه.

تسألها عن السعر، لتنهي الموقف وتسرع بالهرب من المكان، فتلتصق بك فجأة، وتهمس بصوت متهدج أفزعك:

- «من غير فلوس خالص».

تتراجع في دهشة، وتمدّ يدك لتحرر كتفيك من قبضتيها اللتين أطبقتا عليهما في قوة، وتقول لها:

- «فيه إيه يا ست إنتي؟».

بحركة سريعة، ترفع ذيل قميصها، وتبدو على وشك التعري الكامل، وهي تطيل النظر إلى عينيك مباشرة، فتلجمك الصدمة وتمنع أطرافك من إصدار الاستجابة الصحيحة لثوانٍ، تستغلها لتقترب منك أكثر، تنتفض فجأة وتشعر باشمئزاز كاسح، فتدفعها عنك في قسوة، وتدير عينيك عن لحمها المبتذل وتبصق على الأرض، لكنها تحاول الاقتراب من جديد وكأن شيئًا لم يحدث، تحرّك رأسك غير مصدق، وتفتح الباب في عنف، وتهرب، فيطاردك صوتها اللزج:

- «استنى بس رايح فين؟».

تنزل السلم قفزًا دون أن تلتفت وراءك، ترفع يدك وتغلق أذنيك عن نداءاتها التي خالطتها الآن الشتائم المقذعة، وتشعر برغبة قاهرة في إفراغ معدتك، وعندما تصطدم بجسد رفيقك الذي قادك إلى هذا المكان، لا تتوقف، ولا تعيره انتباهًا، تواصل الهرب، في حين يواصل هو صعوده في تؤدة، ويبتسم نفس الابتسامة الباهتة المعتادة، ويجرّ يده على سور السلم المتآكل في أكثر من موضع، محاذرًا أن يجرح نفسه.

(٨)

لم تكن تُحب الأسانسير كثيرًا. فيلم «بين السما والأرض» جعلك تَحذَرُه، وزميلتك في الثانوية العامة التي حُبِستْ بداخله في الدور العاشر ذات يوم، وحكايات جارك عن أفلام الرعب الأجنبية التي لا يحلو لها تفجير المصائب إلا في الأسانسير، طبع قلبك بنكتة سوداء تجاهه.

كان هذا تفسير القلق الشديد الذي انتابك عندما علمت أن مكتبك في الدور الخامس، وأنك ستضطر لاستخدام الأسانسير كل يوم، خاصة وصحتك لم تعد مثل السابق لتسمح لك باستخدام السلم. فسنوات الجلوس على مقعد أمام جهاز كمبيوتر، وسنوات الوقوف في فصل أمام تلاميذ لا يدرون الفارق بين الليل والنهار، أفقدَتكَ الكثير!

في أول يوم عمل تتشبث باستخدام السلم، لكن المسافة الطويلة والمرهقة، تجعلك في اليوم الثاني تتشجع قليلاً، فتضغط زر استدعاء الأسانسير برهبة، وتنتظر أحدًا ليركب معك، وعندما لا تجد، وتنظر في ساعتك وتخشى أن تتأخر، تُسلم أمرك لله، وتدخل برجلك اليمنى، وتغلق الباب خلفك، وتقرأ الشهادة والمعوذتين، ثم تضغط زر الدور الخامس وقلبك يدق، يصعد جسدك وتهبط روحك، لكنك تصل - لدهشتك!- سالمًا!

بعد يومين أو ثلاثة، تعتاد الأمر، ولا تتحرك خطوة واحدة دون الأسانسير، وتقضي ثواني الانتظار في تأمل الملصقات التحذيرية التي استغلّها البعض لكتابة أرقام موبايلاتهم، علّهم يظفرون بصيد ثمين بهذه الطريقة، والمرآة الضخمة ذات الإطار المذهب والحواف التي على شكل قلوب صغيرة ملونة، التي تحرص على التأكد من هندامك أمامها كل مرة.

بعد أسبوعين، يتوقف الأسانسير في الدور الثالث، وتركب معك محررة الأخبار الفنية في المجلة، جميلة ومحجبة، تُفاجأ بوجودك، فتنحنح:

- «السلام عليكم».

صوت رقيق ونبرات متزنة، تردّ السلام، وتمدّ يدك لتحمل عنها بعض أعداد المجلة التي تُثقل يديها، فتشكرك، وعندما تنزل في الطابق الأول، تنزل خلفها، ثم تنتبه لنفسك، فتعود للأسانسير، وتصعد للطابق الثاني، فتُسلّم بعض الأوراق، وتهبط ثانية للطابق الأول.

تفتح حوارًا مع رجل الأمن، وتسأله عن أحواله، وأخبار عملية اللوز التي أجراها لابنه، فيندفع في حديث سبق أن سمعته منه منذ يومين، تنتهز الفرصة، وتنظر في دفتر الحضور والانصراف، لتعرف مواعيد المحررين الفنيين، ثم تُحذّره من الانصياع لابتزاز هيئة التليفونات وفواتيرها ذات ضربة المبيعات إياها، أو المضاربة بأمواله في البورصة اللعينة، وقبل أن يحاول فهم كلامك أو ينظر إليك بدهشة، توليه ظهرك، وتصعد السلم على قدميك.

قبل السابعة -موعد حضورها اليومي- كنت تدخل من باب المجلة، وتنتظر في استراحة الدور الأرضي، لم يحضر أحد بعدُ، تحتسي كأسًا من المياه المعدنية الباقية فوق إحدى الترابيزات من الأمس، وتتسلى بعدّ أعواد الثقاب وأعقاب السجائر في منفضة أمامك، عدد الأعقاب ضعف عدد الأعواد، هل كانوا يشعلون سيجارة من سيجارة؟

بعد دقائق، تلمح طلّتها ومجلاتها التي لا تفارق يديها، فتنتفض من مكانك، وتتظاهر بالمفاجأة، تحيّيها، فتحييك، وترتسم على شفتيها ابتسامة رقيقة، وكأنها أدركت سرّ تبكيرك، تأخذ منها بعض المجلات، وتفتح باب الأسانسير، وتدعوها للدخول، وتدخل وراءها، وتغلق الباب، تتمنى تكرار حادث زميلتك أيام الثانوية، فتنقطع الكهرباء لتظلّ بصحبتها، وتتحدثا عن كل شيء، تكسرا جميع الحواجز، وتذيبا الجليد، يرتجّ المصعد بالفعل، ويتوقف، فتندهش.. هل تحقق الحلم بهذه السرعة؟

لكنها تنظر إليك وتستأذنك لتفسح الطريق، فهي تريد النزول هنا، فتنتبه، وتتحرك جانبًا، وعندما تختفي من أمام عينيك، تغلق الباب خلفك، وتصعد للطابق الخامس، وتدخل القسم الخالي لتستمتع بالوحدة، وعندما تجد منفضة سجائر على مكتبك، وتلاحظ أنها خالية من كل شيء، تفكر أن تنزل للطابق الأرضي، وتحصل على بعض البقايا من المنفضة الأخرى، وتوزّعها بالتساوي بين المنفضتين!

يطلبك رئيسك في منتصف اليوم ويخبرك باختيارك لمهمة عمل ثقيلة، في فرع المجلة بمدينة ساحلية، فلا تستطيع أن ترفض، وتضطر للتغيب أسبوعًا، لكنك لم تكن سعيدًا بتغيير وجه الغربة الذي

تطالعه منذ فترة، كانت أيامك هناك موزّعة بين العمل والتسكع في الطرقات الطويلة والحديث إلى الغرباء والحلم بأسانسير يصعد بك ألف طابق بصحبتها، ومجلات كثيرة تحتاج إلى يديك لتحملها عنها.

وعندما انتهت المهمة أخيرًا، في السابعة تماماً في أول يوم لعودتك، كنت تقف بباب الأسانسير، تفرك يديك بعصبية وتمني نفسك بلقاء يملأ روحك ويشبع نهمك لرؤيتها، لكنها لم تظهر، وعندما صعدتَ لمكتبك، سمعت أخبارها من «الأوفيس بوي» في فترة الظهيرة:

- «الأستاذة إيمان، اتطلقت، ورجعت الصعيد».

أصبحتْ عادة أن تأتي كل يوم في السابعة، وتدخل المصعد في التوقيت الذي دخلتَه معها من قبل، تحمل بعض المجلات والكتب، وتُسقط مجلة عن عمد، تتظاهر بأنك نسيتها، ثم تعدل هندامك في المرآة، وبسنّ قلم جاف لا حبر فيه، تشوّه القلوب الملونة المحيطة بإطار المرآة، وتحاول طمسها، وفي منتصف النهار -كأنها مصادفة- تدخل المصعد، فتفاجَأ بمجلتك، وتلتقطها، لتتحسّسها في حنان، وباقي اليوم تصعد وتهبط السلم على قدميك.

(٩)

تذهب لمحطة القطار، وتقطع تذكرة لمكان مختلف كل مرة، لا تنوي أن تذهب إليه أبدًا، لا تركب القطار وتجلس على أي مقعد خالٍ في المحطة، لا تعرف أحدًا، ولا تنتظر أحدًا، لا يعرفك أحد، ولا ينتظرك أحد، وجوه سمراء، وبيضاء، عربية وأوروبية، وصينية، مشاعر، وانفعالات، وحقائب، أكياس بلاستيكية، كراتين، وأصوات زجاج ومعادن تصطدم في قيعان مظلمة رهن مسافات طويلة مؤجلة.

من حين لآخر تمدّ أذنيك، وتتسمّع، صوت القطار الراحل رفيع، وحاد، وعال، ومتصل، وصوت القطار المتهادي داخلاً محطته، هادئ، وممتلئ، وقور، وآمن، ومتّزن، حتى القطارات تشعر بالغربة والإياب!

تتذكر صديقك الذي فقدْتَه تحت عجلات قطار، كان يريك مهاراته في الركوب في آخر لحظة، فينتظر حتى يتحرك القطار، ثم يبدأ في الجري، يقترب منه، ويمد يده القوية، ويتشبث بالعمود المعدني، ويقذف نفسه للداخل، فيُصفّق له زملاؤه، ويسبُّه رجل عجوز، وتمصمص امرأة شفتيها، وتنظر إليه شابة جميلة بإعجاب خفي.

وعندما يجلس لاهثًا في مواجهتك، تلاحظ القَطْعَ الذي وضع عليه «بادج» في ركبة البنطلون، واتساخ ياقة القميص، وتجعّد أكمامه، قبل أن يبدأ في الحديث عن أبيه الذي كف عن السعي على رزقه،

شُغلانة النجارة بِطلِت، فأغلق المحل، وأسس شلة على المقهى، ولا يريد أن يعمل عند أحد في هذه السن، ثم يخبرك عن أخيه الصغير طالب الإعدادي، الذي ضبطه مع حبيبته الصغيرة فوق السطوح، وأخته التي ترفض كل العرسان المتقدمين، حتى تُوفر على أبيها حرج عدم القدرة على التجهيز، يتنهد ويُسرّ إليك برغبته في ترك كلية «التجارة» فهو يُحبّ الكمبيوتر ويفكر في الالتحاق بمعهد جديد افتُتِح في ضواحي القاهرة، لكن والدته تعارض وتتشبث به، فهو الكبير، وعمله في محل كهرباني بعد الكلية يساعدهم في المصاريف.

آخر يوم رأيتَه قطعةً واحدة، كان مكتئبًا وعيناه غائمتان في دنيا أخرى، ولم تعرف أبدًا ما الذي جدّ في حياته، قميصه خارج البنطلون، وشعره مهوّش، ويده في جيبه، ويدندن لحنًا حزينًا، لمحته من بعيد، ينظر للقطار والمحطة والمسافرين والجرس الكبير الضخم وشباك قطع التذاكر، وإليك، فرفعت يدك، وأشرت إليه، لكنه لم يردّ، مال على فتاة لا يعرفها، وهمس لها بشيء، فنهرتْه، وأسرعت بالفرار!

كان القطار يتحرك ببطء ثم بسرعة، وصديقك يتقدم منه بتراخٍ، ثم في قوة، كانت أنفاسه تتسارع، وبريق عينيه يزداد، وهو يرفع يده، ويقبض على العمود كالمعتاد، لكن يديه خانتاه دون سابق إنذار، فانفتحتا وتخلّتا عن العمود في لحظة، كان ينظر إليك، متسع العينين والفم، وكأنه يريد أن يهمس إليك بشيء أخير، لكنه اختفى من أمام عينيك فجأة واختلط صوت تكسير عظامه بصراخ عشرات الركاب والواقفين على المحطة وصفير القطار وصوت جرس مدوٍ، وندائك باسمه بأعلى طبقة صوتية ممكنة.

لم تحضر جنازته، قاطعتَ المحطات والقطارات والسفر، وتركتَ ذقنك تنمو.

بعد شهر، رأيت أباه يعمل في نفس محل الكهربائي، وكلما رآك، يطيل النظر إليك، ويُقبّلك ويبكي، فقاطعتَ الشارع الذي يوجد به المحل، ولم يعد لك أصدقاء.

لم تعد لمحطة القطار إلا بعد عام كامل، ذات ليلة، ببطء ورهبة، كنت تتقدم على هدى ضوء أصفر مريض للمبة شاحبة، تبدو في آخر ساعات حياتها، تتأمل أشباح القطارات الرابضة في انتظار البعث، والخفير الملتفّ ببالطو حكومي متداعٍ، ويبدو ميتًا أكثر منه نائمًا.

تفرك يديك بعصبية وأنت تجلس في مقعد أمام البقعة التي لملموا بقاياه من فوقها، وتتحدث إليه، لم يكن هناك الكثير لتخبره به على أي حال، فلم يتغير شيء منذ رحيله، باستثناء موت أبيه، وسقوط البيت المتهالك فوق أمه وأخيه، وهروب أخته إلى المدينة الكبيرة بحثًا عن موت أكثر نظافة.

تنهض، وتنادي ولدًا صغيرًا يلعب، تدّعي أنك جاهل، وتسأله أن يقرأ لك التذكرة، فينظر إليك بدهشة، طويل، عريض، وترتدي نظارة، ولا تعرف القراءة؟! يبتسم، ويشعر بأهميته، ويقرأها لك، وعندما يُخطئ في التشكيل، تُصحّح له، ثم تعطيه ظهرك، وتخرج من الباب الكبير في مواجهتك.

تتعمد الاصطدام بالمارين، لتصل لمسامعك أصوات باهتة بعيدة لشتائم تتطاير ناحيتك من كل اتجاه، تؤكد لك أنك كائن حي حقيقي ولست حلمًا باهتًا في خيال مخمور!

(١٠)

جاء هاتف «الحسيني» في وقته، لم تكن تنوي أن تردّ عليه، ولكن يدك خالفت إرادتك، فأجبتْ:

- «إنت فين؟ عايزك ضروري».

يقابلك في رمسيس أمام مسجد الفتح، أسمر البشرة، طويل، مفتول العضلات، كان متعجلاً، ويسير بخطى سريعة، يُخبرك وهو يسحبك من يدك، وتركبان أتوبيس لـ«أول عباس» بأنّه عثر على سكن مع مجموعة طلاب.

- «هنشوفه سوا .. ولو عجبنا.. نتوكل على الله».

ترفض أن يدفع لك الأجرة، وتُخرج من جيبك ما يكفي لكليكما، تهرب من ثرثرته بالنظر من النافذة، يُخيل إليك أنك رأيت كل هذه المشاهد من قبل، البيوت والبشر والمحالّ والكباري والسيارات، الفارق في أماكن وجودها، وفي وقت الرؤية، متى تشاهد ما لم تشاهده من قبل؟

تستعيد فجأة عبارة سليمان الحكيم: «باطل الأباطيل.. الكل قبض الريح.. ولا منفعة تحت الشمس»، تفيق على صوت «الحسيني» وهو يخبرك عن زوجة صاحب المصنع التي كانت سببًا في تركه العمل.

تلتفت إليه، وتمنحه أذنيك على سبيل المجاملة، وإن كنت بالفعل غير قادر على التركيز فيما يقول، فيخبرك بأن صاحب المصنع أمره أن يذهب للهانم في المنزل لقضاء بعض المشاوير لها، ولكنه رفض، فطرده فورًا.

تسأله بلا مبالاة حقيقية:

- «ورفضت تروح ليه؟».

يخبرك بأن امرأة صاحب المصنع لم تكن تريده من أجل شراء طلبات، ولكن من أجل أن ينام معها، فتُخفي دهشتك، ويرتفع صوته:

- «بس أنا تعبت يا أخي.. كل يوم كل يوم؟ هو مفيش رحمة؟!».

تبلع صدمتك، وتتركه يتابع في ألم:

- «وجوزها ابن الكلب عارف أنا بروح أعمل إيه، وبرده بيبعتني، عالم زبالة.. يلعن أبو القرش اللي بيجي بالشكل ده يا أخي.. والله لو ما كنت محتاج المليم عشان مراتي العيانة ما كنت قبلت من الأول».

لا ترد، وتُمعن في إرسال بصرك للبعيد.

تنسى أنك في أتوبيس، وتعود طفلاً على دراجتك القديمة، تنطلق عبر حقول «شربين»، وترى مدّ الطريق فتفرح، ولا تتمنى الوصول لنهايته، تُلقي السلام كالكبار على كل من تقابله، وتنتشي عندما يردّ عليك أحدهم، تتعثر وتسقط أكثر من مرّة، فتقوم، وتركب الدراجة من جديد، رغم الجروح الغائرة التي أُصبت بها، وخفة الدماغ التي يورثها الألم الحارق، واللوم الذي توشك على تلقيه بمجرد دخولك من باب

البيت، عندما ترى أمّك الثوبَ المتّسخَ والبقعَ والجروحَ، تتسلل إلى حجرتك في بطء وحذر، لكنك تجد أمّك أمامك، فترفع يدك بسرعة لاتقاء ضربة محتملة، لكنك تفاجأ بقبلة ساخنة على جبينك ويد حانية تمتد لتربت رأسك.

يوقظك «الحسيني» بهزة عنيفة من يده، فتُفيق، وتُخرج رجليك المحشورتين في الكرسي الأمامي بصعوبة، وتحاذر أن تحتكّ بالفتاة التي تمر أمامك رغم أنها تتمهل عن عمد.

تنزلان عند سلّم جامعة الأزهر، وتعبران من فوقه، تدخلان شارعًا متوسط الطول، مليء بعمارات تبدو على قدر من الصحة والعافية، فتتوجس خيفة، وتسأله عن الإيجار، فيطمئنك.

تصعدان للدور الخامس في العمارة ٧٥، وتتوقفان أمام الشقة ٣١، فتسمعان في الشقة المقابلة، صراخ طفل صغير مختلطًا بصوت سُباب نسائي وخبطات مكتومة بشيء ثقيل على جسم طري، قبل أن تطرقا الباب، فينفتح، ويبدو وجه شاب صغير خارجًا ليلقي بالقمامة في السلّة السوداء الكبيرة المجاورة للشقة، يرحب بكما، ويدعوكما للدخول.

الشقة حجرتان، في كل حجرة ثلاثة أسرَّة، كل اثنين على سرير، والإيجار معقول، فالشقة لضابط متقاعد، هجر القاهرة وعاد إلى الأقاليم، وهو يؤجرها لقريبه الذي يدرس في كلية التجارة من عشر سنين، ويكسب عيشه عن طريق تأجيرها بدوره لغيره، يعجبك المكان،

فتقرر أخذ سرير كامل ودفع ضعف الأجرة، «الحسيني» قَبِل أن يشارك غيره في سرير.

تدفعان المقدم والتأمين، وتأخذان نسخة من المفاتيح، وتقرران السكنى من الغد، تسأل فجأة:

- «هو مفيش هنا مساحات خضرا خالص؟».

(11)

يترك زميلك ما بيده، ويتحدث بانفعال عن «إسرائيل» الملعونة وسياستها الاستيطانية التي لا تتغير من رئيس عصابة لرئيس عصابة آخر، الضحايا ضاقت بهم المستشفيات، الكهرباء والغاز والبنزين في ندرة الذهب واليورانيوم، وصمت عربي متوقع، جعجعة ومؤتمرات وتصريحات لا تتغير صيغتها كأن من يكتبها في كل البلاد العربية نفس الشخص!

يُخبرك عن الطفل الصغير الذي انتزعَت القذيفة قلبَه من جذوره، والعجوز التي استيقظتْ بلا قدمين، فماتت من الصدمة، فتسأله عن كلمة «شمس» وهل همزتها قطع أم وصل؟ ينظر إليك بدهشة:

- «من غير همزة خالص».

تغير الموضوع، وتسأله عن خطيبته، وآخر أخباره معها، فيترك لوحة المفاتيح، وتنخفض نبرة صوته، يُخرج سيجارة ويشعلها، وينظر إلى الباب المفتوح بحذر، ثم يخبرك عن الموعد الفائت، عندما اختلى بها في منزل أسرتها، وعمّا فعله معها، وكيف كادت أن تصبح امرأة، ينخفض صوته أكثر، ويحكي لك خطته التالية لاستدراجها لمنزله، في غياب أخيه المراهق وأخته التي تعدّت الثلاثين ولم ترتبط بعدُ.

تهمس في أذنه:

- «خدت بالك من اللي حصل النهارده؟».

يسألك باهتمام:

- «إيه اللي حصل؟».

تنهض من مقعدك، وترفع صوتك:

- «الشاي كان ناقص سكر».

ينظر إليك بدهشة، وأنت تخرج من الباب، وتذهب للمطبخ، تسأل «الأوفيس بوي» عمن صنع شاي الصباح، وعندما يُخبرك بأن ورديته بدأت من نصف ساعة فقط، تُنبّه عليه أن يُبلغ زميله في الفترة الصباحية عن استيائك من هذا التهاون، وتنوي إخبار رئيسك -عندما تلقاه- حتى يُشدّد عليه، ليكون أكثر دقة في مثل هذه المسائل الخطيرة.

صورة لشهداء غزة تحتلّ الصفحة الأولى من الجريدة القومية الملقاة على مائدة المطبخ، تتناول الجرنال باهتمام، وتأخذه تحت إبطك، وعندما تعود لمكتبك، تقول لزميلك بفرح:

- «أخيرًا لقيت حل لمشكلة التراب اللي مالي الشاشة».

تقطع الصفحة بالطول، وتلمّع بها سطح شاشة الكمبيوتر في تأنٍ، فتزداد بريقًا.

(١٢)

لم تتعوّد الردّ على الأرقام الغريبة، ومع ذلك، تضغط Ok عندما ترتفع نغمة السلام الوطني -التي اخترتها لتكون مختلفًا- من موبايلك، فتسمع الصوت الوقور المهذب على الطرف الآخر:

- «حضرتك قدّمت لوظيفة مراجع لغوي عندنا في المجلة.. يسعدني أبلغك إنك اتقبلت».

لا تستوعب الأمر وتداعياته من أول وهلة، فتؤجل ذلك لوقت انفرادك بنفسك في غرفتك، وتشكره، بلا فرحة ولا حزن، شعورك محايد، كخط مستقيم مرسوم على أسفلت ساعة غروب الشمس وبدايات تلمّس القمر لطريقه في سماء مبهمة، تهم بإغلاق الخط دون مزيد من الأسئلة، فيتابع الصوت:

- «استلام الشغل بعد يومين».

تضع الموبايل في جيب بنطالك، وتُغير اتجاهك، وتذهب ناحية كوبري البحر، أهم معالم «شربين»، مراكب صغيرة وصيادون يرمون الشباك وينادون على بعضهم بعضًا بأصوات عالية منغّمة، موج رقيق ونسمة هواء مالحة ومشبعة برائحة مراوغة، تدفع بالحلم القديم ليداعب

خيالك، فتتمنى تأجير مركب تُبحر به في خط مستقيم، بلا شاطئ، ولا هدف، ولا عودة.

تتذكر «محمود» -مثلك الأعلى في طفولتك- الذي كان يقفز من فوق الكوبري إلى الماء، ويرفع الحديد، ويلعب الكاراتيه، وتميل إليه جميع الفتيات، كان يسير بنصف كمّ في عز الشتاء، وفي الصيف يرتدي التي شيرت القصير الضيق الذي يبرز عضلاته ويمنحه عمرًا أكبر من عمره.

ومع أنه أكبر منك بسنوات، فقد كان يعتبرك صديقه الوحيد، وبعد أن ينتهي عمله في محل الموبايلات، يسهر معك فوق سطوح بيتهم، مع عودين أو ثلاثة من القصب الذي يعشقه، ويحكي لك مغامراته مع فتيات الثانوية بنات والثانوي الفني، والخطابات التي يرسلنها إليه مع أخته الصغيرة، ويعطونها خمسة جنيهات كاملة في سبيل توصيلها إليه، ويُسرُّ إليك بأنه لا يهتم بكل هؤلاء، ولا يفكر إلا في «سوسن المحمدي» ذات الضفيرة والصوت الخفيض وكتاب الفرنساوي الذي لا يفارق حضنها في الطريق، ثم يتنهّد وهو يقول لك إنه يحلم بدخول منتخب مصر والاشتراك في بطولة العالم لرفع الأثقال، والحصول على غرفة بمفرده، بعيدًا عن إخوته الخمسة الذين يشاركونه في كل شيء، إلا الفهم وتقدير ما يفعل!

عرض عليك -في أول سهرة لكما فوق سطوح منزلك- أن تدخّن معه، فجذبتك المغامرة على الرغم من الرائحة المنفّرة التي كانت تؤجج صدرك بالكحّة، ومددتَ يدك وتناولتَ السيجارة منه، في نفس اللحظة التي صعدتْ فيها أمُّك لتطعم الدجاج، فضبطتك متلبسًا، و«محمود» ينظر إليك بترقّب.

لم تصرخ أمك كما توقعتَ، ولم تهرع إليك لتضربك، وتهين «محمود» وتطرده من حياتك للأبد، لكنها نزلت بسرعة، وعادت بعد ثانية واحدة -كأنك في فيلم خيال علمي حيثُ الانتقال الآني حقيقة واقعة!- وفي يدها علبة كبريت، ثم أمرتك أن تضع السيجارة في فمك، وتسحب منها نَفَسًا، في حين تقوم هي بإشعالها!

وعندما كدتَ تعترض، دفعتك نظرةُ عينها المرعبتين لتنفيذ كل ما تطلب، الحَرقان والكحة والدموع التي غزت عينيك والصداع الذي غرس إبره الساخنة في مخك فجأة!

تلقي بالسيجارة في فزع، فتأمرك أمك أن تلتقطها مرة أخرى، وتأخذ نفسًا ثانيًا، فتمد -مضطرًا- يدًا مرتعشة وعينين تستغيثان بـ«محمود» الذي ألجمه الموقف، وعندما تتباطأ، تلكزك أمك في عنف، فتأخذ النفس الثاني على مضض وروحك تكاد تزهق، فترتفع ضربات قلبك، وتزداد الدموع في عينيك، يصاحبها صوت نشيج مكتوم، وعندما أمرتك أمك بسحب النَفَس الثالث، كنت ترفع يدًا خالية من العظم والعزيمة، لم تلبث أن سقطت إلى جوارك، وبعدها رأسك فاقدة الوعي، بعد أن عرفتَ أنك لن تقرب سيجارة ثانية طوال عمرك!

لم تفرض عليك أمك شيئًا بعد هذا الموقف، كما كنت تتخيل، ولم تأمرك بألا تتحدث مع «محمود» ثانية، ولا حتى مانعتْ ذهابك إلى سطوح بيته من جديد، لكنك أنت الذي لم تعد ترحّب بذلك بنفس حماسة الماضي.

آخر مرة رأيته، كان سعيدًا ومتهللاً، استوقفك في الشارع وأخبرك بأن أحد مدربي المنتخب قد رآه في مباراة محلية، وقرر أن يُلحقه بالفريق الأول، كان يتحدث وهو يقفز، وينظر لبعيد، ويذكر المستقبل بكل خير ومودة، ويُعلن عن مسامحته لكل الظروف الصعبة التي عاشها، وكل الذين لم يؤمنوا بقدراته وسخروا من أحلامه، ويفكر في التقدم لـ«سوسن» بمجرد أن يقبض أول مرتب.

بعد يومين سمعتَ ما حدث من والدتك وهي تنشج، كانت تحكي لإحدى الجارات على السطح المجاور ساعة عصاري عن «سوسن» بنت الحاج «المحمدي» التي كانت تتنزّه في قارب صغير مع إحدى زميلاتها، فحدث شيء لا يعلمه أحد، أدّى لانقلاب المركب في عرض البحر، «محمود» هو الوحيد الذي كان يراقب الموقف، فقفز من فوق الكوبري فورًا، وعدل القارب وأنقذ الجميع، ثم لم يَطفُ ثانية أبدًا، جاء رجال بقوارب أكبر حجمًا، ونزل بعضهم إلى الماء، وغابوا طويلاً، ولكن لم يصعد أحد به حيًا أو ميتًا، استمر البحث يومين، دون جدوى، حتى يئس الجميع في النهاية، وأسلموا أمرهم لله.

تنتبه على صوت ناعم، يُلقي بتحية خجلى، وقبل أن تستدير، كنتَ تعرف أنها «سوسن المحمدي» التي توطّدت علاقتك بها، بعد اختفاء «محمود»، في محاولة منها لأن تُبقي على خيط ولو واهنًا، يذكّرها بمن ضحّى بعمره من أجلها، وكانت تعرف أنك أقرب الناس إليه.

تردّ السلام وتبتسم وأنت تتابعها في مشيتها وهي تسحب ولدها الصغير وتؤنّبه على شيء لم تعد تذكره الآن.

(١٣)

لم تدر كيف ستُخبر أمك! كنت تسافر القاهرة للبحث عن عمل دون أن تُطلعها على الأمر، وعندما تأخرتَ ذات مرة، واضطررت للمبيت هناك، اتصلتَ بها وادّعيت أنك في «جِنّة» أحد أصدقائك من «المنصورة»، وقد حلف عليك للمبيت معه.

تتذكّر عصبيتها الزائدة ودموع عينها عندما شكوتَ لها مرة كرهك للتدريس، ورغبتك في تقديم استقالتك، والبحث عن رزقك في مكان آخر، ظلّت يومين لا تأكل، ولا تضحك في وجه أحد، ولا تأخذ دواءَها، وتشعر بضيق تنفس استدعى الذهاب للمستشفى العام في النهاية، حيث مال عليك الطبيب بعد أن هدأت النوبة وهمس في أذنك:

- «ماتزعّلش الحاجّة تاني».

أختك أخبرتك بالقصة كاملة، فأمك تراك ضعيفًا هزيلاً بلا قدرة على مجالدة الحياة، ترتدي نظارة وتسير جوار الحائط، وتعتمد عليها في كل شيء، والشغل الخاص لا أمان له، ولو تعبتَ أو مرضتَ أو خرجتَ إلى المعاش، فمن يعولك، ويدفع مصاريف علاجك!

- «أمك بتخاف عليك بزيادة»، تقول أختك.

فهي لم ترك يومًا قد كبرت عما كنتَ عليه في اللفّة، وربما عما كنتَ عليه في رَحِمِهَا! تعاملك بحنان ورحمة لم تشهدهما في تعاملها مع غيرك، حتى مع أبيك، تهديك حتى اليوم فانوسًا في كل رمضان، وتحلم بيوم زواجك، ورؤية ذريتك، وكل يوم تشير عليك بعروس شكل، فتُخرج لها جيوبك الخاوية، وترفع كراسات الطلبة وتذهب إلى ركن قصي لكي تُتم تصحيحها.

أكبر عامل ساعدك على اتخاذ قرار تعديل المسار، عندما نُشرت لك قصة قصيرة في جريدة «أخبار الأدب»، وعلّق عليها ناقد مشهور، يومها أحسست بالجرأة تسري في دمك، وأبصرت نورًا في قلب العتمة، وقررت أن تتقدم خطوة للأمام، وتتحمل جميع النتائج.

تتذكر والدك متعدد المواهب الذي ظل طوال عمره يندم على أنه لم يأخذ هذه الخطوة، وتُصمم ألا تُكرر أخطاءه.

اعتدتَ أن تسافر للقاهرة سرًا، وتُقدّم في أكثر من وظيفة، محررًا صحفيًا ومراجعًا لغويًا ومصمم جرافيك وفني صيانة كمبيوتر، كنت تحلم بأي شيء يقربك أكثر من نور العاصمة وبراح الفرص التي تحتاج إلى من يقتنصها.

لكنك كنت تعرف يقينًا أن العثور على وظيفة، أصعب منه تبرير أحلامك لوالدتك، ومع أنك لم تكن تريد أن تغضبها أو تفعل ما يخالف إرادتها يومًا، فإنك كذلك لم تكن تريد أن تُخزّن حياتك في قبر بلا شاهد وبلا معالم واضحة، وتمضي من الدنيا كما دخلتها، بلا صوت ولا أثر ولا ذكرى ولا قيمة.

تدخل البيت في تؤدة وتردد، حاملاً صينية بسبوسة من التي تحبها، فتراها أمام «البوتاجاز» تعد لك البطاطس المحمرة التي تعشقها، على السفرة طبقان من الأرز بالكُركم الذي لا يجيد أحد في الكون صنعه مثلها، وطبق سلطة كبير، وطبق الملح الذي لا تذوق طعامًا من دونه، تبتسم في وجهك، وتطبع على جبينك قبلة حانية، تُبعد عينيك عن مرمى نظراتها، وتقول بلا مقدمات:

- «أنا هشتغل في القاهرة».

(١٤)

تعوّدْتَ كلما رجعتَ السكن أن تلتقي بأحد أولئك العابرين، صديق نزل القاهرة لقضاء مصلحة طارئة واحتاج للبقاء ليلة أو اثنتين، أو حالم يسأل عن شروط الهجرة لأي مكان، أو طَموح ندهته النداهة فعثر على عمل حقير أقنع نفسه بأنّه أول خطوة في طريق الألف ميل، وإن لم يجد مكانًا يبيت فيه، فهو ضيف عليكم حتى يفرجها الله.

وفي سكن العزّاب لا توجد مشكلة كثافة أبدًا، فالشقة ذات الحجرتين والصالة يمكنها أن تتمدّد وتتعملق وتستوعب أي عدد من البشر، فهناك الكنبة في الصالة، والبلكونة، والسرير الصغير الذي يمكن بقدرة قادر- أن يتسع لاثنين عاديين أو ثلاثة نحفاء، وأرضية الحجرات، والمطبخ، وبانيو الحمام كذلك لو حكمت الظروف!

ومع أنك -في الغالب- لم تكن تعرف هذا الصديق، وربما تستثقل دمه ودعاباته المكشوفة، فقانون الغربة يفرض عليك أن تبتسم في وجهه، وتشارك في استضافته، وتقدّم له بنطلون الترنج الزائد لديك، ومعجون الحلاقة، وزجاجة العطر، ولا تسأل عن كيلو الفاكهة الذي تركته أمس في الثلاجة، أو العشرين جنيها التي كانت في جيبك، أو تتذمّر ولو بإشارة من رنين المنبهات الذي يبدأ صياحه في الثالثة صباحًا!

وفي سكن العزّاب تتغير معالم الشقة مع كل وافد جديد، فأحدهم لا يحب موضع المكتب ها هنا، والآخر لا يستريح على الكنبة إلا إذا تحرّكت أسفل الشباك، أما هذا فهو يتشاءم لو كان الدولاب أمام السرير وليس إلى جواره، ومن ثمَّ فكل واحد يضع بصمته، كما لو كان في بيته بالضبط!

واللحظة الوحيدة التي يكتشف فيها كلٌّ منهم أنه ضيف، والعين ما تعلاش عن الحاجب، عندما يفسد شيء، الحنفية أو السخان أو الثلاجة أو اللمبة، حيث يتهرّب الجميع من المهمة الثقيلة، وتظلّ أيامًا، وربما شهورًا طويلة تدخل الحمام على ضوء الموبايل، وتلتهم طعامك كله حتى لا يفسد دون ثلاجة، وتقضي في الشغل وقتًا أطول لعدم وجود لمبة بالصالة!

ولكثرة من مرّ عليك من البشر، أصبحتَ تتخيّل السكن محطة وقود فضائية عملاقة، يقصدها رواد الفضاء من أنحاء المنظومة الشمسية، ربّما يتزوّدون بالوقود والصحبة الآدمية، ثم ينطلقون من جديد في رحلة اكتشاف الكوكب الأخضر!

وحكايات الصحاب وأصحاب الصحاب في السكن لا تنتهي، تبدو في الليل جمرة مشتعلة، يتحلّق حولها الجميع، فينفصلون عن معاناتهم، ويعيشون لحظات خارج إطار المفروض واللازم والحتميّ، يرون أنفسهم بعيون الآخرين وعقولهم، فيتبسّطون ويفتحون شرانقهم، ويعرف كل منهم الآخر من جديد. ورغم اختلاف القصص وتباين لهجاتها وملابساتها، فإن ما يجمع بينها في النهاية ويُؤلّف منها خطًّا طويلا متصلاً بلا بداية أو نهاية هو الفقد والاحتياج!

وغالبًا ما تُفتتح الحكاية بالحديث عن بنات القاهرة ولبسهن وتحررهن، ثم تنعطف على العيشة والظروف وقصص الحب الفاشلة والأهل المعلقين في رقبة كل منهم والالتزامات التي لا تنتهي، والأحلام التي يبدو أنها لا تكفي وحدها لتحقيق أي شيء، ثم يبدأ الغمز واللمز بخصوص الروائح الناعمة المنتشرة في الشقة، والتي تُعد دليلاً قاطعًا على تعوّدكم «إحضار البنات» فيها في غفلة من البواب!

وهي تهمة أزلية ومحتومة، ولا يُجدي معها إنكار ولا رفض ولا محاولة تغيير الموضوع! كنتَ في البداية تتضايق منها ويحمرّ وجهك وتكاد تشتبك مع مُلقيها، ثم مع الوقت والتكرار، هدأتْ حدّتُك، ولم تعد تثور مثل السابق، بل وبدأتَ تبتسم وتمنحهم إشارات ذات مغزى، وكأن هذا بديهي ولا يحتاج سؤالاً!

والحقّ أن الفكرة لم تكن بعيدة تمام البعد عن ذهنك، فقد كنت بِكرًا في هذه المواضيع طوال عمرك، ومحطّ سخرية زملائك في سني دراستك المختلفة؛ لجهلك المُدقع بكل ما يمتّ لعالم النساء!

بل لعلك تعترف الآن -بينك وبين نفسك- أن أحد أسباب سعيك للعمل في القاهرة أن تنال فرصة أكبر لتجربة مثل هذه العلاقات!

ولكنك كنت أجبن من أن تفعل هذا، وتغامر بتلويث سمعتك حتى لو أمام من لا تعرف، لذا عشتَ على أمل أن تجد لك ناصحًا وقائدًا في الانحراف، يتحمّل عنك عناء البدايات، ويضع قدمك على بداية الطريق!

مرّ عليك الكثير من المقيمين بالسكن، نسيتَ بعضهم وتناسيت البعض الآخر، لكن وجهًا بعينه لا ينفكّ يخايلك، بل ويتسلل إليك أحيانًا في أحلامك، ويبدو أنه يملك قوة ذاتية للبقاء!

وجه حسن الصعيدي، الذي هبط عليك ذات يوم من قنا؛ لقضاء مهمة غامضة لم يُفصح عنها لأحد أبدًا، فأسَرتك سُمرته المحبّبة وعيناه الطيبتان، كنت تسهر معه كلما عدتَ من عملك ووجدته مستيقظًا يقرأ أمل دنقل الذي يعشقه، ويكتب خطابات ورقية لفتاته، لا يرسلها لها أبدًا، وتستمع لحكاياته المذهلة عن الصعيد الذي لا تعرف عنه غير آثار الأقصر وأسوان!- حيث كل يوم هناك ملحمة حقيقية للبقاء على قيد الحياة في مواجهة شظف العيش وأخطبوط الثأر وتجار المخدرات ومهربي الأسلحة وسطوة الكبار!

كان «حسن» يتكلم كل مرة وفي صوته نبرة حزن آسرة، تلتقطها بسهولة دون أن تحاول حثّه على الإفصاح، رغم تحرّقك شوقًا لفض مغاليق قلبه، كنت تحافظ على المسافة التي وضعها بينكما، وتتعشم أن تذيبها العِشرة ذات يوم فتعرف عنه أكثر!

«حسن» كان يحبك، أدركت هذا بسهولة من تبسطه معك -عكس الباقين- واتصاله بك كلما تأخرت ليلاً، وعدم أكله دون أن يترك لك بعضًا من طعامه ولو كان برتقالة أو موزة، وعدم مناداته لك إلا يا «ولد عمي».

وكانت لحظة الذروة في علاقتكما عندما انسالت دمعة من عينيه يومًا بينما كنت تسأله عن سر الخطابات الورقية، فاندفع يحكي ويتكلم بلا توقّف، وكأنما أشقاه الصمت والتكتم:

- «فيك من يكتم السر يا ولد عمي، كان بينا وبين عيلة الحنايشة تار، وبوي كان هو اللي عليه الدور ياخده، اتحايلت عليه يوحّد الله ويحتسب ويوقّف سلسال الدم، وقلت له قال الله وقال الرسول، لكن اللي في دماغه في دماغه»!

وتنهد «حسن» كمن يحترق في نار جهنم وتابع:

- «فضلت أراقبه لحد ما عزم، فمشيت وراه، وفضلت كانن لحد ما شاف ضحيته وهو داخل بيته، فرفع البندقة ولسّه هيطخ، لقاني وراه يا ولد عمي وبخبط البندقة وأضيّع الطلقة، كنت فاكر إنه هيرتجع، لكنه اتحوّل لوحش كاسر، وضربني بيدّه وقّعني على الأرض، ونطّ على ضحيته، وطلّع خنجر ودكّه في قلبه وجري».

راح «حسن» يرتعش وهو يكمل:

«حاولت أسعف الراجل يا ولد عمي، لكنه زعق بحلاوة الروح فخرجت بنته ومَرَته من البيت، شافوه غارق في دمه فملوا الدنيا صويت وصياح، وفي لحظة الرصاص ملا المكان من كل حتة، طالتني منه طلقة في كتفي، لكن قدرت أهرب واتاويت عند واحد صاحبي، لحد ما اتعافيت وهربت على مصر»!

كانت الدموع جلية في عين «حسن» الآن وهو يستطرد:

- «المصيبة إن البنت الوحيدة اللي حبيتها في حياتي كلها، وكنت بحلم بيها أم لوَلَدِي، بنت الراجل اللي أبويا طخّه، وهي اللي بكتب لها كل الجوابات دي، وأنا عارف إن عمرها ما هتقراها أبدًا»!

تهتزّ من وقع المفاجأة، ومن كم الألم الذي يحمله في قلبه، وتنظر له بإشفاق، دون أن تملك ما تواسيه به! تربّت على كتفه وتفتح ذراعيك لتحتويه بداخلهما، دون أن تدري أن هذه آخر مرة سوف تراه فيها!

فقد اختفى «حسن» في اليوم التالي فجأة، ولم يعد يبيت في الشقة، ولم يردّ على تليفوناتك، وفشلت كل محاولاتك للعثور عليه، أو اقتفاء أثره، حتى سمعتَ الرفاق يتحدثون عنه ذات ليلة ويقولون إن الشرطة عثرت عليه مذبوحًا داخل غرفة صغيرة بأحد فنادق الحسين الرخيصة، دون أن يعرفوا مَن فعلها!

(١٥)

لم تكن لديك ميول سياسية، ولم تفكر في الانضمام لأي حزب أو جماعة، كنت تشعر دائمًا أنك بُترت من هذا العالم لحظة وصولك إليه، فلم تعد بحاجة إليه، كما لم يعد بحاجة إليك، لذلك رفضتَ كل إغراءات «وسيم عادل» كي تنضمّ إليه في إحدى مقاهي وسط البلد؛ لمناقشة الحال والحالة، مع بعض المهتمين بمثل هذه الأمور، كل مرّة تتعلّل بشيء مختلف، وتتعجب من إصراره على دعوتك.

لـ«وسيم عادل» مَعَزّة خاصة في قلبك، غير كل زملاء العمل، فهو ربفي مثلك، تشعر معه بالصدق والانطلاق، وهو الوحيد الذي يشاركك وجبات الكشري المصري والفول والطعمية وحمّص الشام والشكوى من العيشة واللي عايشينها، ويضحك بصوت عالٍ وطفولي، كما يساعدك في إعداد المقالب للزملاء من حين لآخر.

اليوم لم يُسعفك عقلك بشيء، فقرّرتَ أن تجرّبَ، يتأبط ذراعك بعد انتهاء العمل، ويصرّ أن يحاسب في الميكروباص، تتأمّله بقامته القصيرة وجسده النحيل، ووجهه المليء بشعيرات متناثرة، يصرّ على الإبقاء عليها دائمًا، مدّعيًا أن لها سرًا مثل شعر شمشون الذي كان يمدّه بالقوة الخارقة!

مقهى «ليبرتي» في وسط البلد، أوروبي الطابع، يمتلئ بكثير من الوجوه التي تتعرف إليها لأول مرة، تتّخذ ركنًا قصيًا، يتيح لك الاستماع إليهم دون أن تكون مضطرًا للاشتراك، تطلب شايًا ثقيلاً، قبل أن تمتدّ يد إليك بقنينة من البيرة التي يبدو أنها مشروبهم الرسمي هنا.

«سندس» و«وسيم» و«حسني عبد ربه» -الذي لم تسترحْ لطريقته الساخرة في معاملة من حوله- أكثر من تكلّم في هذا اليوم، الكلام كان كثيرًا ومهمًّا لدرجة أنك نسيت أغلبه، وإن لم يخرج عما اعتدتَ مطالعته في صحف المعارضة والقنوات الفضائية التي تريد كسب أكبر عدد من المتابعين كل يوم.

لم تشارك بكلمة، ولا إشارة، على العكس كنت تحاول معظم الوقت إغلاق أذنيك وعينيك ومسامّ روحك، حتى لا يتسرّب إليك شيء من حكمتهم البالغة وعباراتهم الفخيمة، فيعكّر سلامك الداخلي، كنت قد حسمتَ أمرك من زمن بخصوص معظم القضايا الكونية التي يُضيّع فيها هؤلاء السادة أعمارًا لا يملكونها، عندما قرأت هذه العبارة «الناس ينتظرون يوم الجمعة طوال الأسبوع، وينتظرون الصيف طوال العام، وينتظرون السعادة طوال عمرهم»، وقررت أن تبادر فتسعَد وتفرح حتى لو لم يكن هناك أي مبرر لذلك!

لذا لم تعد تهتم بارتفاع الأسعار، وزحمة المواصلات، وبرودة الجو أو حرّه، والنظام السياسي الحاكم. كنتَ دائمًا هناك، في عالمك الداخلي السري، تستمتع بالحياة يومًا آخر، والقدرة على الحركة والتنفس والأكل والشرب واللعب ودخول الحمّام، تلك المعجزات اليومية البسيطة التي لا يلاحظها أحد، ولا يعتبرها أحد كذلك؛ لأنهم فهموا أن

المعجزة لا بدّ أن تكون ضخمة ومهولة كإحياء الموتى وشق البحر وإنزال القرآن، ففاتهم ملايين المعجزات الصغيرة المبهجة التي لو افتقدها أحدهم لحظة، لما تكلّم في السياسة وحال البلد والثورة والتسليح النووي الإيراني!

بعد اللقاء الذي استمر حتى منتصف الليل، ينتحي بك «وسيم» ويُخبرك بأنه مضطر لتركك وحدك، لأمر مهم، وأنه سيكون عليك توصيل «سندس» إلى منزلها، وقبل أن تعترض، كان قد اختفى من أمامك، وفتح المجال لـ«سندس» لتتقدم نحوك وتقول بابتسامة خطفت قلبك:

- «يلا؟».

بتلقائية آسرة، تتأبّط ذراعك، وتلوّح للجماعة، وتسحبك للخارج.

هواء الليل البارد وأضواء السيارات والأعمدة والإعلانات الضخمة والمحالّ التي ما زالت ساهرة.

تتذكّر «شربين» وحيرتك في كثير من الليالي، عندما كنت تريد أن ترى وجوهًا وتسمع أصواتًا، فتخرج من بيتك بعد منتصف الليل، لتجد السواد يلفّ كل شيء، ولا أحد غير الهوام والحيوانات الضالة والأشجار والعربات الراقدة على جانبي الطريق وصناديق القمامة أمامك، فتُخرج دراجتك من مكمنها، وتفتح قميصك، وتنطلق بأقصى سرعة ممكنة عبر الشوارع والحارات التي يبدو أن بشرًا لم يُخلقوا لسكناها بعد، تدفع الهواء ويدفعك الهواء، فتتنفس بعمق ورحابة، تذهب لكوبري البحر وتراقب الموج الهامد رغم اشتداد لفحات الهواء

وأصوات الصفير التي كنتَ تجزم أنها للجنّ الساهر اليقظ الذي يستغلّ نومنا ليلاً ليصحو ويمارس حياته الطبيعية.

بعد يأسك من العثور على أي مقهى مفتوح الأبواب أو محل لابتياع زجاجة مياه غازية، تعود لمنزلك، وتدخل حجرتك وتغلق الباب خلفك بالمفتاح، تفتح الراديو على أي محطة أجنبية، لا تريد أن تسمع شيئًا، لكنك تستأنس بالصخب، وفي ليالٍ أخرى، تضع شريطًا في الكاسيت لسيمفونية من سيمفونيات بيتهوفن، وتطفئ جميع الأنوار، وتستغرق في الأحلام.

تتدفق «سندس» بحديث عذب وساحر، تروي لك كل شيء دون أن تسألها، دراستها وحياتها وعائلتها، تتنقل بلا نظام ولا ترتيب بين موضوعات متباعدة، تفاجأ بأنها تسكن في مدينة نصر، لهذا طلب منك «وسيم» إيصالها.

«سندس» طالبة في السنة النهائية بكلية الإعلام، وحيدة والديها، ورأس مالهم الوحيد، كما كانوا يداعبونها دائمًا، تحبّ السفر وكتابة الشعر المنثور، وتتعلم قيادة السيارات في السر، وتُدخّن سيجارة مختلسة من حين لآخر، وتحلم أن تكون كـ«يسري فودة».

تضحك وتقول لها:

- «تبقِي راجل زيه يعني؟».

فتقول لك في تحدٍ:

- «إنت بتقول فيها؟».

ثم تندفع في حديث طويل عن رغبتها الدفينة أن لو كانت ولدًا، حتى لا تكون مطمعًا لكل رجل تقابله، وحتى تفعل ما تشاء دون لِسْتة التعليمات والأوامر المعتادة، وترتدي ما تحب، وتتأخّر ليلاً، وتتشاجر وترفع صوتها بالسباب وسط الشارع دون أن يلومها أحد!

تقول لها:

- «عشان كده بس عايزة تبقي ولد؟».

تهتف:

- «لا طبعًا مش عشان كده بس، أنا مش سطحية للدرجة دي!».

تقول:

- «أمال إيه تاني؟».

تقول بمكر:

- «عشان كمان أعاكس البنات الحلوة».

ثم تطلق واحدة من ضحكاتها طويلة المدى، التي تظل عالقة في سماء المكان، حتى بعد أن تنطفئ، حتى ليمكنك أن تمدّ يدك وتتحسَّس دفأها ووهجها دون جهد!

تعود لها جدّيتها فجأة، فتتابع:

- «بس تعرف، للأمانة يعني، أنا بحب كوني بنوتة، الرجالة تحسّهم ماديين كده وملهوفين على متع الدنيا، وإحساسهم بالجمال والموسيقى

والطبيعة شبه منعدم، وإن وُجد يبقى لغرض مادي برضه بس مستتر!».

تقول لها مبتسمًا:

- «الله يكرم أصلك!».

تهتف مدافِعة عن نفسها:

- «الله وإنت مالك إنت؟ أنا بتكلم عن الرجالة!».

تصيح:

- «إيه؟».

تعود لها ابتسامتها الماكرة في ثانية وتهتف:

- «قصدي يعني إنك سيد الرجالة، مش راجل عادي من اللي قصدتهم».

فلا تملك إلا أن تبتسم، وتلوّح في وجهها بقبضتك المضمومة مهددًا، بينما تجزّ على أسنانك في غيظ!!

كنت تشعر في ليل القاهرة بشيء جديد هذه المرة، أليف ووديع ورحب، لم تعرفه منذ أتيت، وتحسّ بدبيب مشاعر تتحرّك على استحياء وبحذر بالغ، تحت طبقات من رماد وتجارب مؤلمة وعذابات لم تندمل، ورغم خوفك من ضعفك التقليدي أمام كل مَن تملك ابتسامة ساحرة، كنت تشعر بفرحة حقيقية.

لم تشارك يومها في الحديث كثيرًا، كنت تريد أن تستمع إليها أكثر، تختزن مفرداتها ولوازمها الكلامية، لتستعيد كل ذلك فيما بعد، وتستمتع بالتصاق كتفها الصغيرة المدوّرة بكتفك، وحركاتها التلقائية المفاجئة، ونكاتها التي تنتهي جميعًا بـ«كَفَّك»، ولقاء كفَّيكما السريع الواعد الذي يملأ جسمك نارًا موقدة، وعندما وصلت العربة لسلم جامعة الأزهر، لم تنزل، وأصررتَ أن تظل معها حتى «أول عباس».

كانت ابتسامتها -التي لم تنقطع منذ رأيتها- تشعّ الآن بألق وفرحة وطفولة آسرة، وهي تصافحك على باب العربة وتشكرك على إيصالها، وتسألك:

- «هتيجي الاجتماع الجاي؟».

ومع أنك لم تجِبْها إلا بابتسامة محايدة، أسرعْتَ تدُسُّها على شفتيك، كي لا تلاحظ تحديقك الطويل في عينيها، فقد كنت تعرف يقينا أنك.. ستذهب.

(١٦)

تحبّ أن تراقب القاهرة ليلاً من فوق البُرج والكباري وأسطح العمارات الشاهقة، عندما يتحول الجميع إلى نقاط من النور والحركة، تمتد وتنتشر عبر مساحات وحالات ورؤى، وتكرهها عندما تكون أنت نفسك ضمن هذه النقاط، وتفكر أن أحدهم بلا شك يراقبك الآن ويُحصي عليك كل نَفَس وحركة.

النهار وقح وكاشف، مشاغب وعصبي ومعفّر بالتراب والعرق والأصوات العالية والهرولة والزحام، والليل أكثر وقاحة، وإن كان كل شيء يجري فيه خلف الأبواب المغلقة والنوافذ الموصدة وحراسات الرجال وتراخيص القانون.

وأول الليل المشحون بالحركة والخطوة السريعة، غير آخر الليل المنهك الثمل الذي يبحث عن ركن قصي ومهمل، يغتسل فيه من آثام البدايات، ويغفو في انتظار بعث آخر، قد يأتي وقد لا يأتي.

العادة التي لم تستطع الفرار من غوايتها، بعد وصولك «رمسيس» إثر انتهاء عملك في «المهندسين»، في نهاية يوم شاق ومرهق: أن تعبر الطريق في تؤدة وتراخٍ، غير مبالٍ بالسيارات التي تفتح النور العالي في وجهك، ولا بأبواقها العالية، وتلويحات سائقيها الفظة، وكلماتهم التي

لا تسمعها بوضوح، ولكنك لا تشك أنها تنال من كل موضع في جسدك.

كم مرة كادت سيارة تدهسك؟ وكم سائق رَكَن وحاول أن يتشاجر معك؟ لكنك لم تتوقف عن فعلها أبدًا. وأنت مستسلم لنفس السؤال الذي بات يشغلك أكثر من غيره: ماذا لو صدمتك إحدى السيارات بالفعل؟ من سيحزن عليك ومن سيمشي في جنازتك؟ من سيدّعي أنه لم يعرف الموعد، أو يحاول تذكر اسمك وملامح وجهك، فلا يستطيع؟ من سيعتبر هذا الحادث أهم من تأميم قناة السويس وخروج الإنجليز من مصر وحرب ٧٣؟ ومن ستغافله دمعة وتسقط على خده رغمًا عنه عندما يتذكر موقفًا جمع بينكما ذات يوم؟

تستعيد قائمة كاملة من الوجوه والأسماء، تنفرد بكل واحد منهم، وتبلغه الخبر، وتراقب رد فعله في ترقب، تتحاور معه وتناقشه، وفي النهاية تلملمهم جميعًا -حتى من تأكدت أنه لن يعيرك أي انتباه - وتكدسهم مرة أخرى فوق رفوف الذاكرة، حتى يحين موعد الاختبار التالي.

تراقب كراسي الحدائق العامة بعد أن يهجرها أصحابها، الوحدة وذكريات الدفء الراحلة منذ ثوان أو أيام أو سنوات، القصص والحكايات المعلّقة في فضاءات بعيدة وحالمة، تبحث عن فرصة ثانية، وتنتظر قيامة لن تأتي في الغالب أبدًا، تتلصص على أشباح الراحلين، آثار الأقدام الذابلة، بقايا الورق الممزّق الملقى في إهمال، المليء بأسهم وكلمات مبتورة ورسومات سريالية ووعود وحكايات خيالية ومزورة،

الجرائد المنسية والأكواب الفارغة وزجاجات المياه الغازية المكسورة، وحبّات الترمس والفول السوداني وقشور اليوسفي والبرتقال والموز.

مع انسحاب أشعة القمر وإفساحها المجال ليافطات المحلات المضيئة بألف لون، وصوت الموسيقى المنبعث من لا مكان، والألحان الأوبرالية التي تطن في رأسك وحدك، تتنقل بين الواجهات، تراقب المانيكانات التي ترتدي أشيك الملابس وأغلاها، تحدق في عيونها الجامدة الخاوية من الحياة، وتحاول تخمين إحساسها، بالذات عندما يخلعون عنها كل شيء، ويكومونها في ركن قصي، حتى يختاروا لها الثوب التالي الذي سيكون عليها ارتداؤه.

تتذكر الإسكندرية دائمًا في الليل، ورحلة الكلية الوحيدة التي كسرتَ فيها شرنقتك وخرجت على عاداتك جميعًا، وقررت الذهاب إليها، تتذكر بعض الوجوه والأسماء، «أماني» و«رشا» و«فاطمة» و«عبير» و«محمد » و«حسام» و«أحمد» و«مروة» و«دعاء» و«دينا» و«عمرو» و«داليا»، شلة عربي وشلة طبيعة وكيمياء وشلة تربية أساسي، الرفاق والأحلام والوعود والعالم الذي كان وجهه مختلفًا يومها في كل شيء.

لعبة «المنديل» على الشاطئ، والبنت التي غمزت لك بعينها، فسرحتَ فيها حتى اختطفتْ منك المنديل وفاز فريقها، والعلقة التي نلتها من فريقك بسبب ذلك، الكرة الطائرة وماتش كرة القدم الخماسي، و«صلّح» والذرة والبطاطا الساخنة والشاي الأسود الثقيل على كورنيش النيل، ووجبة الفول والطعمية عند «سيد أحمد» التي فوجئت أن ثمنها عشرون جنيهًا، وإحراجك عندما سمعت عن «زنقة الستات» لأول مرة، مع شوقك لرؤيتها، وصدمتك عندما وجدتها مجرد

سوق تجاري آخر. والضحك والسخرية اللذين نلتهما ساعتها من رفيقاتك!!

أول مرة شاهدتَ «المنتزه» شهقتَ من الروعة والجمال، كنت تجري كالمجنون، من هنا لهنا لهناك، فاردًا ذراعيك لاحتضان البراح، تراقب الشباب والفتيات في أحلامهم التي لا يملكون سواها، الفنادق الفخمة، واللنشات التي تمخر عباب الماء، وتتمنى أن تبقى في هذه اللحظة للأبد.

تتذكر «سما» أول حب دقّ على استحياء أبواب قلبك الصغير في سنة أولى جامعة، البنت التي لم ترَ أصفى من عينيها، ولا أطول من شعرها، والسبب الرئيسي الذي من أجله سعيتَ لهذه الرحلة، كنت تتمنى ولو كلمة واحدة منها، حتى تُعتِّقها في قلبك، وتصنع منها أنقى إكسير للبهجة والسعادة، لكنك لم تكن تملك إلا أن تراقبها من بعيد، وتتسمع أخبارها من زميلاتها، ولا تجرؤ على الدنو من عالمها، خشية أن تحترق!

جمالها كان ظالمًا؛ لأنه أعمق من أن يُدرك، وأبعد من أن ينال، وأروع من أن يتكرر!

على كلمات «برج حمام» لمنير، التي كان أحد الشباب يغنّيها بمصاحبة جيتار شجي، فوجئت بابتسامتها تتقدّم جسمها الرقيق، وهي تأخذ بيدك فجأة من وسط الجميع، وتنتحي بك في ركن مليء بأشجار وزهور يانعة وزهريات حجرية ضخمة، لتخبرك أنها تحبك!!

من شدة المفاجأة، لم تنطق، ولم تفتح فمك، ظللتَ تبحث عن كلمة مناسبة أو رد فعل ملائم، فخذلتك كلُّ الدنيا وقتها، حاولت أن تتكلم بعينيك، فهوّمت عيناك بعيدًا وسرحتا في ملكوت آخر، أحسستَ بيدها تنسحب من يدك في هدوء، وطيفها يبتعد، والدفء الذي هلَّ مع طلتها يتبدد، وصدى صوتها يتفتت ويختفي، وأدركت أن هذه اللحظة سوف تسكنك للأبد، لن تهادنك، ولن تجاملك، وستزدري قيمة أي إنجاز تحققه في حياتك بعدها!

بعد قليل سمعتَ أنها ركبت سيارة عائدة للمنصورة، ولن تكمل الرحلة، وبعد أسبوع، تركت الكلية وحوّلت إلى كلية أخرى في «القاهرة»!

«أنا قلبي برج حمام..

هجّ الحمام منه..

(IV)

لم تجد أحدًا في السكن، مع أن الساعة تشير إلى العاشرة مساءً، تشعر بالجوع، وتتذكّر أنك لم تتناول شيئًا منذ ساعات، تخلع ثيابك وتفتح الثلاجة، لا تجد شيئًا، تكتفي بكأس من الماء المثلج، رغم أن الوقت شتاء، يرن موبايلك، وعندما تفتحه تجد «الحسيني» يتكلم بصوت ملهوف:

- إنت فصيلة دمك إيه؟

- «A +» ليه؟

- طب تعالى لي حالاً مستشفى «الدمرداش» - الدور الرابع.

ويغلق الهاتف قبل أن تستفهم منه عن أي شيء، ترتدي ثيابك مرة أخرى، وتأخذ تاكسي حتى باب المستشفى، وتصعد للدور الرابع. «الحسيني» زائغ العينين وذقنه نابتة وقميصه خارج بنطاله، عندما يراك يندفع نحوك وفي عينيه دموع، يخبرك عن والده الذي دخل في غيبوبة مفاجئة بعد نزيف دموي حاد، وعن نصيحة الأطباء بالمجيء به من بلدته، لهذا المستشفى فورًا.

تتحرّك إثر سَحبةٍ من يده، لتجد نفسك في غرفة مليئة بالمكاتب الحكومية المتهالكة، وبلاطي الأطباء، وممرضة مقطبة الجبين، تسألك

عن تاريخك المرضي وفصيلة دمك، ثم تضع إبرة حادة في ذراعك العارية، وتقدم لك كرسيًا خشبيًا، فتجلس عليه وتمد ذراعك المفرودة على مكتب صغير أمامك.

لم يكن كيس الدم قد امتلأ بعد، عندما اندفع «الحسيني» مرة أخرى إلى الغرفة، وهو يبكي في هيستريا، ويصرخ:

- أبويا مات.. مات.

ينقبض قلبك، وتمدّ يدك لنزع الإبرة، لكن الممرضة تهرك، وتثبّت يدك في وضعها المفرود لثوانٍ أخرى، قبل أن تنزعها بنفسها، وتضع على الثقب الأحمر الصغير لاصقًا طبيًا.

كان «الحسيني» قد تكوَّم في ركن الغرفة، جلس القرفصاء، واحتلت عينيه نظرة ذهول، وتدلت يده إلى جواره.

تُربت كتفه، وتهمس بكلمات غير مفهومة، ثم تعينه على النهوض، وتأخذه خارج الغرفة، تذهب معه لحجرة الأب المتوفى، سرير أبيض صغير، وجسد ضئيل متكوم تحت ملاءة بيضاء مرقّعة، وعدد من المرضى يلتفون حوله، بعضهم يقرأ قرآنًا، والبعض الآخر يكتفي بالنظر.

الممرضة مقطبة الجبين تدخل، وتخبرك بضرورة تغيير ملابس المتوفى، وتسليم لبس المستشفى، وهي تلتهم ساندويتشًا، وتمد يدها لـ«الحسيني» بورقة ليوقعها، كانت الورقة تقول إن المتوفى خرج من المستشفى وهو على قيد الحياة!!

تأخذ القلم من يدها، وتوقّع، دون أن تسألك عن صلتك بالمتوفى، تتناول الورقة وتدسها في جيبها بلا مبالاة، وتغيب في آخر الممر، في حين يظل صوت المضغ والبلع يصك أذنيك لفترة.

أحد المرضى يتبرّع بجلباب نظيف، ويقوم آخر بإلباسه للمتوفى، في حين تأخذ «الحسيني» من يده، وقد أصبح كطفل صغير مفقود في زحام مدينة صاخبة، وتتصل بأقربائه في البلد؛ لتجهيز كل شيء.

تدفع «الترولي» الذي يرقد عليه المتوفى، مع أحد المرضين، و«الحسيني» متشبث بكتفك بقوة، حتى لا يقع من طوله، وخائف من لمس والده، أو رؤية عينيه المغلقتين، اللتين كثيرًا ما تسقط الملاءة من فوقهما، بفعل الحركة الخشنة والهزهزة وانحناءات الممر الطويل الذي يؤدي للمخرج، تصل أذنيك أصوات كثيرة متداخلة، تتخللها آيات قرآن وأدعية ونهنهات مكتومة، وتنهدات حارة مسموعة.

عربة الإسعاف، والمساومة على أجرة الطريق، وقول السائق الذي سيتكرر طول الطريق: «الإسعاف مابتشيلش ميتين بلا آفية، بس إنتوا عشان ناس طيبين».

هواء الليل يتسلل للعربة بفعل لوح زجاجي مكسور، فيختلط بنهنهات «الحسيني» التي لا تنقطع، وتحديقك المتواصل في الجسد المسجّى أمامك، والمناظر العابرة المتشحة بسواد وغموض يوحي بألف معنى وحكاية، يُخيل إليك بين لحظة وأخرى أن المتوفى يحرك ذراعه من تحت الملاءة، فتقنع نفسك بأنه خداع نظر لا أكثر، وتضع يدك على يده المرتخية لتتأكد.

بعد ساعتين تقريبًا، تصل العربة إلى بلدة «الحسيني»، يستقبلكم سرادق ضخم وجمع كبير رغم الوقت المتأخر، كلوبات نور محمولة على عصي مرفوعة ورجال في عباءات سوداء وبنية وجلابيب بيضاء ونساء متشحات بالسواد يصرخن بلا انقطاع.

تمتد أكثر من يد لإنزال المتوفى وسط محاولات العديد لكشف وجهه ورؤيته للمرة الأخيرة، يسحبك «الحسيني» مرة أخرى وسط دموعه ويصر أن تحضر معه الغُسل، تحاول الاعتذار، لكنك تجد نفسك بفعل التدافع في وسط حجرة عارية من الأثاث، باستثناء كنبة جرداء مائلة للون الأصفر وجرادل مياه فاترة، والمُغسّل الذي يشمّر يده ويتمتم بأدعية وآيات قرآنية لا تفهم منها شيئًا.

يُسَجُّون المتوفى على الكنبة وتبدأ طقوس الغُسل، الوضوء والتنشيف وإلباسه الأكفان وإغراقه بالعطور النفاذة، ثم حمله ووضعه في «الخشبة» بعد فرشها بملاءة نظيفة وبطانية، ووضع مخدة صغيرة موضع الرأس.

الصلاة والتكبيرات الأربع، والتدافع في حمل المتوفى، والعرق والتراب الثائر والأدعية والصراخ والتعثر وإماطة بعض الأحجار الضخمة من طريق السائرين وبوابة «التُرَب» الحديدية الصدئة والقبر الفاغر فاه وكلوبات الإضاءة المبهرة والتلقين وصرخات «الحسيني» وإلقائه بنفسه على صدر أبيه لآخر مرة، والأيدي التي تمتد لتزيحه وتنصحه بالصبر، ونزول القبر وإغلاق الفتحة بالأسمنت والطوب وكتابة تاريخ الوفاة واسم المتوفى، والوقوف في صف طويل لتلقي العزاء.

كان «الحسيني» منهكًا ومحمرّ العينين، ينهج ويضع يده على جانب بطنه، ليحاصر ألم الكلى الذي يهاجمه الآن، ويميل نحوك ويسألك:

- «ليه ربنا كتب علينا الموت؟».

فتتنهد وتهمّ بقول شيء ما بليغ، فلا تجد، فتقرر الصمت، وتكتفي بربتة حانية على كتفه المتهدل.

(١٨)

مع أنك كنت تريد بشدة الذهاب للجلسة الأسبوعية في «ليبرتي» بصحبة «وسيم» لتلتقي «سندس» مرة أخرى، إلا أن الوعكة الصحية التي ألَّمت بك فجأة، قلّصت هذا الحلم، ثم راحت تطرده رويدًا عن رأسك كلما مضى الوقت، حتى قتلته تمامًا في النهاية؛ بسبب المغص الشديد الذي راح يمزق كُلْيتك، والعرق الغزير الذي يُعمي عينيك، والضعف العام الذي شعرتُ معه أن جسدك عمارة مغشوشة الأساس توشك أن تتهاوى على رؤوس ساكنيها!

تتناول الفلاجيل والكيتوفان، وتندس تحت الأغطية، لتهرب من الخيالات المفزعة التي تنفرد بك، هو ذا أقصى مخاوفك يتحقق، فهاجمك المرض وأنت مستوحش في المدينة الكبيرة، بلا يد حانية تمتد لتربت جبهتك، ولا كلمة مواساة تصل أذنيك فتشرح صدرك وتعينك على التحمل.

الساعة التاسعة صباحًا وكل رفاق السكن ذهبوا لأعمالهم، وحتى لو كانوا موجودين، كنت ستخفي ألمك عنهم، وتتظاهر بأن كل شيء على ما يرام! تتصاعد حدة الألم، فتضغط على شفتك السفلى حتى تدميها، وتفكر في عمل كوب شاي، لكنك لا تقوى على القيام من مكانك.

تتذكر يوم كنت تلعب في طفولتك بالمقصّ، ووضعتُه مفتوحًا على الفراش، ثم نسيتَ كل شيء عنه، ولم تنتبه إليه إلا ساعة صعدتَ لتنام، فاصطدم طرفه المدبب بركبتك، فأدماها، فصرخت في فزع عندما رأيت دمك يلوّث الملاءة البيضاء، يومها هرعت إليك أمك، واحتضنتك وقبّلتك، حتى هدأتَ بين ذراعيها، ثم وضعت على الجرح صبغة يود ولفّته بلاصق طبي، وأخذتك -رغم مقاومتك وادّعائك أنك بخير- إلى الطبيب، لكي تطمئنّ عليك، ورغم سطحية الجرح، وتفاهته، فقد أصرّت أمك على مكوثك في البيت بضعة أيام، راحت تذيقك خلالها كل فنون الحنان والرحمة، لدرجة تمنيتَ معها أن تظل مريضًا تحت رعايتها للأبد!

الآن أنت وحدك تمامًا، بصحبة وحش مجهول ينهش أحشاءك، لا تعرفه ولا تدري كيف يمكن عقد هدنة مؤقتة معه، وتحت رحمة العرق اللزج الثقيل الذي يعمي عينيك ويسيل ليقتحم فمك ويتسلل إلى البلعوم.

تشعر بارتفاع درجة حرارتك، واهتزاز المرئيات أمام عينيك، ترى أمك فجأة وهي تنظر إليك بغضب، وتصرخ:

- «كان على إيه كل ده؟».

ترفع يدك وتحاول النطق والدفاع عن نفسك، لكن الصورة تتبدل بسرعة، وتشاهد أباك الراحل، يرمقك بنظرة حزينة ويرفع يديه مرات في الهواء بلا أي معنى، ثم يختفي دون أن ينطق بكلمة واحدة، بعده يأتي دور أخواتك البنات، اللائي رحن واحدة وراء الأخرى يظهرن

أمامك ويختفين بسرعة وقد أخذت كل واحدة منهن تؤنبك بكلمة جارحة!

أنت تهذي، هذا واضح، ولكن هل صوت الهاتف الذي يخترق أذنيك في هذه اللحظة بالذات، جزء من هذيانك هو الآخر؟

تتواصل الرنّات، وتبدو كيد ضخمة وكبيرة تحاول أن تنتشلك مما تعانيه، تنتبه لحظة، وتمد يدك إلى جوارك، وتلتقط الموبايل، هناك رنة تصدر عنه الفعل، هذا الجزء من الحلم كان حقيقيًا إذن، دون أن ترى اسم المتصل، تضغط زر Ok وتهمس بوهن عاصف:

- آلو.

- آلو.. مالك فيه إيه؟ مال صوتك؟

لم تستطع التعرف على المتكلم، صوته كان بعيدًا، أو أنك الذي كنت في دنيا أخرى، تهمس مرة أخرى بنفس الضعف:

- أنا تعبان قوي!

ثم لا تقوى على رفع يدك الممسكة بالهاتف أكثر من هذا، فتستسلم لقوى الجاذبية، وتتركها تسقط إلى جوارك منهكة، في حين يتصاعد الصوت المجهول قلقًا وملهوفًا من الموبايل الذي وقع جوار السرير:

- آلو.. آلو.. آلو...

أكثر شيء كنت تخشاه في حياتك، ليس المرض، ولكن احتياج المريض لمن حوله، وعجزه عن الاعتماد على نفسه، في أخصّ خصوصياته،

وحياته التي تتحول إلى نافذة ضخمة وكبيرة بلا شيش ولا شبابيك، من حق كل عابر سبيل أن يتفرج عليها، ويفرض عليها آراءه وحكمته!

تتذكر والدك وكبرياء آخر لحظة، وهو يرفض -رغم عذابه وضعفه المفرط- مَن يمدّ يده ليسنده، ومن يتطوّع لوضع الطعام في فمه، كانت نظراته الحزينة تطوف بوجهك، وتمزّق قلبك بلا رحمة، لكنك كنت ترضخ لإرادته، ولا تعرض عليه المساعدة أبدًا، فقط تظل إلى جواره، لكي يضع هو يده عليك عندما يريد أن يتحرك، ليشعر أنه من يقود دفة السفينة.

موجات من الألم تزرع أحشاءك، تجعلك تطلق آهة عالية ومشروخة، وتعيش مزيدًا من الخيالات المفزعة، ترى نفسك ممدّدًا في قلب صحراء حارقة، وقافلة من الجِمال والجياد، تمضي من فوقك، فتنتهكك الحوافر والأقدام، وتعمي عينيك الأتربة وزخات الريح الهائجة، ويخترق سمعك صوت حادي القافلة وهو يغني كلمات عربية قديمة ومحزنة، لا أحد ينتبه للحيز الذي تشغله من المكان، ولا لصوت صراخك الواهن المعذب، لا أحد يلاحظك، لا أحد يشعر بك.

تنفض رأسك، فتختفي الصحراء، وترى نفسك هذه المرة فوق قمة برج القاهرة، يتدلى جسدك منه بخيط أسود رفيع جدًا -مثل الخيط الذي اعتدت أن تلضمه لأمك في إبرة الخياطة! - يتمزق جزء منه كل ثانية، كنت تصرخ ولا مجيب كالعادة، وتحاول أن تجد ولو سنتيمترًا واحدًا يصلح لوضع قدميك عليه، لكن الغريب أن كثيرين من زائري البرج كانوا يسيرون من حولك، ويرمقونك بلا مبالاة، بل وأحدهم كان يسنّ سكيناً لامعاً، ويهمّ بقطع الخيط الذي تتدلى منه؛ لأن صراخك يزعجه

ويجعله غير قادر على الحديث إلى فتاته، التي ظلت ترمقك بعيون زجاجية، وفتاها يمزق الخيط بالفعل.

كنت الآن تهوي من علٍ، وتصرخ، وتنتفض، وتنادي مَن تعرف ومَن لا تعرف، «أحمد حسن» الذي أقرضته جنيهًا كاملاً في المدرسة الإعدادية، و«لبنى» التي ضربك المدرس بسببها في الابتدائي، «الشافعي» و«علي طه» اللذين علماك السباحة في رأس البر، و«حمدي الشلقامي» الذي كنت تعطيه نصف ساندويتشاتك كل يوم في الثانوي، لكن لا أحد يرد عليك أو يعيرك أي انتباه!

يتحرك جسدك حركات مجنونة، وتطوح بيديك في كل مكان، وفجأة، تصطدم يدك بيد أخرى بالفعل، فتتشبث بها وأنت لا تصدق، لا ترى وجهًا ولا جسدًا، فقط يد تبدو نابتة وحدها في فضاء مغلف بسواد وقتامة، تقبض عليها بعنف مؤلم، يتزايد كل ثانية، وعندما تحاول اليد أن تتركك، وتهزّك في قوة كي تُفلتها، تموت أصابعك عليها، وتتشبث أكثر.

- «اصحى .. اصحى بقى إنت بتحلم ولا إيه؟».

يخترقك الصوت، يرجرجك، فتشعر بشيء من الوعي يعود بك من الأعماق السحيقة التي ابتلعتك، تنتبه، وتفتح عينين واهنتين، وتنظر، باهتزاز في البداية، ثم بشيء من الثبات وكثير من الدهشة:

- «سندس»؟

وقبل أن تغرق كعادتك في ابتسامتها الساحرة، يضرب أذنيك صوت آخر خشن، على مقربة، يقول:

- مش لوحدها يا مولانا.. سيدك وتاج راسك معاها.

كان صوت «وسيم»، الذي تابع:

- اتفضل يا دكتور آدي الجثة قدامك أهي، عايزينك تخلصنا منها بدري الله يكرمك!

يدخل مجال إبصارك شخص آخر، بدين وملامحه طيبة، يقدمه لك «وسيم» بطريقته المضحكة:

- د.«إسلام»، من شلتنا، وتخصص بيطري كمان، يعني طلبك بالظبط.

لم تقوَ على الابتسام، وإن كانت ضحكة «سندس» التلقائية التي انطلقت كالبشارة، جعلتك تشعر بالاكتفاء والشبع لألف سنة مقبلة على الأقل، ووجود «وسيم» غير المتوقع غسل روحك من أدرانها، وجعلك على استعداد لمسامحة اللحظات العصيبة الفائتة.

أخذ الطبيب يكشف عليك، ويضع «الترمومتر» في فمك ويجس نبضك، ودرجة حرارتك، ويغرس في ذراعك إبرة مُسكّن، ويخطّ بسرعة بضع كلمات على ورقة أمامه، أعطاها لـ«وسيم»، الذي سحبه من يده ونزلا من الشقة.

كنت مع «سندس» وحدكما الآن لأول مرة، داخل شقة مغلقة، وفي أمان نسبي من عيون المتطفلين، ألم تحلم أن تكون في هذا الموقف مع فتاة طوال عمرك؟ لكنك كنت متدثرًا بغطاء سميك وترتجف من الألم، في حين تجلس هي برقة على طرف فراشك، وتضع يدها على يدك الممدودة جوارك، وتهمس:

- «سلامتك».

كنتَ تريد أن تقول كلامًا كثيرًا جدًا، كان يتبخر بمجرد أن يتسلق أحبالك الصوتية، ويوشك على الخروج للدنيا، في حين راحت «سندس» تدير عينها في المكان، وتتأمل الفوضى التي تحرص على أن تظلّ من معالمك الحميمة.

فجأة تهمس بصوت رقيق كأنها تخشى أن تجرح السكون المخيم:

- «لما كلمتك في التليفون، وقلت لي إنك تعبان، اترعبت عليك، كلّمت وسيم وجبته وجيت».

تهمس بوهن:

- «متأسف على إزعاجك».

تضع يدها على فمك، وتهمس:

- «أرجوك.. استريح وماتتكلمش».

تستكين للمستها، وتشعر أن كل آلامك تذوب وتتقشر عن جلدك كما تتقشر الرواسب والطين عن الأطعمة التي يتم غسلها في الماء بقوة، ووعيك يصفو تدريجيًا وإحساسك يعلو، لتعيش اللحظة بكل ما تملك، وتركّز في كل همسة وحرف ولفتة.

تنهض «سندس» وتمد يدها لكشكول مجلّد بورق أحمر، تلتقطه وتقلب فيه، فتخبرها بأنها بعض الخواطر والقصص القصيرة التي تؤلفها، تنظر نحوك بدهشة، وتقول ضاحكة:

- «يعني مش باين عليك!».

تقرأ بصوت عال:

(قلت لك أحبك.. بمجرد أن استيقظتُ من النوم.. قبل أن يتدنّس فمي بالحديث إلى غيرك.. أو تتورط عيناي في النظر إلى سواك!).

تتوقف وتنظر إليك مرة أخرى، وتقلب في الكشكول، لتقرأ خاطرة أخرى:

(لم أفهم أبدًا.. لماذا يبكي الورد.. عندما تلمسين أوراقه.. بكل هذه الرقة.. إلا اليوم.. عندما تماسّت أصابعنا.. مصادفة.. وأحسستُ ملمسَها أنعمَ من كل أوراق الورد التي في الدنيا.. كان الورد يبكي.. من الغيرة!).

تغلق الكشكول بهدوء، وتتوجه إليك بابتسامة، تعاود الجلوس على طرف الفراش، ولكنك تشعر أنها أقرب إليك هذه المرة من أي وقت آخر، تقول لك:

- «إنت باين عليك كاتب كبير».

تهمس:

- «أنا لسه في أول الطريق».

- وباين عليك «روميو» كمان.

- «روميو» حظه وحش!

- مهما كان حظ «روميو» وحش.. هيفضل «روميو».

تنظر إليها، فتكتشف في هذه اللحظة أن عينيها عسليتان، وفمها منمنم ودقيق، وتشعر أن الهالة الكبيرة والمُشرقة التي تحيط بها منذ أول مرة وقعت فيها عيناك عليها، تتسع الآن لتجمعكما معًا، فيرتجف قلبك، وتشعر بالخوف، والرغبة في الفرار، والتحصّن وراء رصيدك من الذكريات التي فرمت عظامك وطحنت أحلامك، وظلّت تقتات على دمك حتى أُصبتَ بفقر الشعور!

هذه هي اللحظة التي عشتها من قبل، ولم تتمكن ولا مرة واحدة من مواصلة مدها بالأوكسجين الكافي كي تظل على قيد الحياة.

تمدُّ يدك لتتناول منديلاً ورقيًا، لتحرك الزمن الذي توقف، وتخفي مشاعرك التي بدت من فرط وضوحها، كأن لها لسانًا وشفتين، وتوشك على النطق والصراخ، تسبقك يدها، وتلتقط المنديل، ثم تمده إليك، تتماسّ أصابعكما، فتزداد رجفتك.

تسمع صوت مفتاح يدور في الباب، فتعتدل قليلاً في جلستك، وعندما يدخل «وسيم»، ومعه كيس بلاستيكي مليء بالأدوية التي كتبها الطبيب، ينظر إليكما ويبتسم بخبث:

- طب مش كنت تقولي إنك منهم.. أقَلّه كنت وفرت تمن الدوا!

- منهم يعني إيه؟

- لا ماتشغلش بالك.

يضع الدواء على المنضدة، ويشير لـ«سندس» التي تنهض ممسكة بكشكولك الأحمر في يد، وباليد الأخرى تسلّم عليك، فتتمنى أن تظلّ

متشبثًا ولاجئًا ولائذًا بها للأبد، تنتبه فجأة لشيء غريب، فتسأل «وسيم» قبل أن يغيب عن ناظريك:

- لكن إنتو دخلتوا إزاي؟

- فتنا على «الحسيني» صاحبك في الشقة، وخدنا منه المفتاح، أي أسئلة تانية يا حضرة المخبر؟

(١٩)

فجأة أصبحتَ تنجرف وسط محيطٍ عاتٍ لا تملك فيه مجدافين ولا مركبًا ولا دفّة ولا خريطة، بالقصور الذاتي وحده تسير وتندفع وتتخبط وتتمايل، هل يمكن أن يكون هذا هو الحب فعلاً؟

لم يعد يومٌ يمر دون أن تقابل «سندس»، في البداية كنت تختبئ خلف حجّة أو تعليل مفتعل، لكنك اكتشفت فجأة، أنك لست في حاجة إلى أيٍّ من هذا، يكفي أن تتصل برقمها، وقبل أن تفتح فمك بكلمة، تقول لك في شقاوة:

- الساعة ٧ في «ليبرتي».

وفي أحيان أخرى:

- «فيه عرض يجنن في الأوبرا.. تيجي نحضر؟».

معرفتك بـ«سندس» كانت الحدث الأهم الذي غير من نظرتك للقاهرة، وأفسح بينكما مجالاً لصداقة غير مشروطة، كنتَ تحب نفسك أكثر وأنت بصحبتها، وتستطيع أن تتسامح مع أخطائك، وتُعطي نفسك فرصة أخرى، فترى فيها جمالاً خفيًا لا يُشرق في روحك إلا بصحبتها!

«سندس» كانت تشاركك نزواتك المجنونة، فتلتهم معك الآيس كريم في عزّ البرد، وتُغرق الكشري بالشطّة حتى تصبح شطّة بالكشري، وتقطع

تذاكر المترو ولا تستخدمها، ثم تقفز معك من فوق الحاجز المعدني، وتركبان في آخر لحظة قبل إغلاق الباب مباشرة، وأنتما غارقان في الضحك، ولم تسخر منك عندما أخبرتها أنك لا تأكل إلا وأنت تقرأ «ميكي جيب»، وتُفضّل أفلام الكارتون على ما سواها، ولم تتهمك بفساد الذوق عندما اعترفت لها أنك لا تحب «فيروز» ولا تستطعم «شكسبير« وترى «أنيس منصور» نصابًا ذكيًّا.

كانت تهرب من محاضراتها، وتمرّ عليك في العمل، فتدّعي أنها ابنة خالتك وتحتاجك في مشوار عاجل، فتستأذن لتلفّ معها شوارع المدينة العجوز التي لا تعرفها، فتخبرك بأسمائها وتاريخها وأهم معالمها، تزور المتحف المصري بصحبتها لأول مرة في حياتك، تصعد لقلعة صلاح الدين، وتصلي في جامع السلطان حسن، تشاهد مجمّع الأديان، وتدخل فيلا يوسف السباعي في شارع قصر العيني التي أصبحت جمعية للأدباء، هذا عالمك الحقيقي الذي كنت تحلم به، وجئت القاهرة من أجله، و«سندس» وحدها أرشدتك إليه، وفتحت لك بابه على اتساع المدى.

كانت ضغوط العمل تخفّ، والزملاء يتعوّدون عليك أكثر، والأمور تسير نحو نقطة الاستقرار التي تشبه الموت في استدامتها، ومشاعرك تحتشد في قلبك، وتخبرك أن الوقت قد حان لكي تفعل كما يفعل الآدميون في مثل ظروفك وتحب وترتبط!

لكنكَ كنت تدرك تمامًا أنك لست مثل الآخرين، فلم يكتب لقصة حب عشتها أن تكتمل، ولو حدث وصارحتها بما يولد في قلبك، وانتقلتْ

علاقتكما إلى المرحلة التالية، فمن يضمن لك ألا تتغير مشاعركما بعدها، وتنقلب على عقبيها، فتخسر الصديقة والحبيبة معا؟!

ثم هل تملك القدرة فعلاً على التورّط في علاقة جادة، بكل هذا القلق الذي تحمله كالوشم في أعماقك تجاه أبسط تفاصيل الحياة، وإحساسك بأنك فأر التجارب الذي عثر عليه القدر أخيرًا، فقرر ألا يرحمه ويتفنن في إذاقته كل فنون الابتلاء والحظ السيئ!

تتذكر كيف يرتفع ضغط دمك عندما يغالي سواق الميكروباص في الأجرة قليلاً، والصراع النفسي المبالغ فيه الذي تخوضه بين توبيخه وإيقافه عند حده، والاستسلام كالآخرين ودفع الزيادة، وعندما يحتدّ عليك أحد الرفاق فتتلجلج وتحمرّ أذناك وتبدو كمن يهمّ بطعنه، قبل أن تتراجع وتكتم في قلبك، وتبدأ فاصل التأنيب المعتاد بعد انتهاء الموقف وتظلّ تتصوّر الأفعال الشنيعة وردود الفعل المفحمة التي كنت توشك على إغراقه بها!

تتذكر فشلك الأبدي في شراء ملابس لك، أو حذاء، أو إعداد كوب شاي أو طهي أبسط الوجبات، أو الذهاب للطبيب بمفردك، أو الاضطلاع بأي مهمة مهما بدت بسيطة وفي نطاق الإنسان العادي، تتذكر خوفك من الغد، والرزق، والبشر، وانقطاع النور، وكل ما هو حيّ وميت، ثم تتذكر أنك على باب الله، لا تملك بعدُ ما تفتح به بيتًا حتى لو رغبتَ في ذلك، فتبتسم لنفسك في انهزام، وتؤجل -كالعادة - كل شيء لوقته الذي لا يحين أبدا!

مناقشاتك مع «سندس» كانت تغيّر وجهة نظرك للأشياء، أو تجعلك تنظر لها نظرة جديدة، أو تضع قناعاتك بها موضع الاختبار، كانت قوية في تحديد الماهيات بوضوح، وتسمية كل شيء باسمه، دون خجل، وبصرف النظر عن نظرة المجتمع إليه!

مرة لَمَحَكُما «وسيم» جالسين على «ليبرتي»، في غير الموعد الذي تتقابل فيه الشلّة، كان شاردًا ومهمومًا، ولم يُشرق النور في عينيه إلا عندما رآكما، كان كمن عثر على قشّة في خضم بحر عجاج!

لم يكن في حاجة لمن يدعوه للحديث، جلس وطلب قهوة سوداء، وقال بلا مقدّمات:

- أنا بحب.

تبتسم «سندس» في مرح، وتلكزه في كتفه وتقول:

- عشان كده كنت قالبنا بقى لك فترة؟! مبروك يا عم.

يقول فجأة، كمن يلقي بقنبلة ينوء بها قلبه:

- مسلمة!

تعقّب «سندس» بحذر:

- وما المشكلة؟

يتنهّد، ويهمس ببطء دون أن ينظر لأحد:

- يعني مش عارفة؟!

تتغير ملامح «سندس»، تكتسي جدّية وإصرارًا، تبتلع ريقها وكأنها على وشك خوض معركة كبيرة، تقول ببطء وهي تحدّق في عيني «وسيم» مباشرة دون أن يطرف لها رمش:

وهتفرق معاك في إيه ديانتها؟ لو روحكم تناغمت، وعزفت نفس اللحن بدون نشاز في نفس الوقت؟ وهل الحب في أصله إلا الدين الأعظم الأجلّ اللي بينتظم جميع الأديان السماوية والمخلوقات الحيّة، و«يلضمها» في النهاية في عِقْدٍ هائل متفرّد، دُرّتُه التسليم بالروح والجسد، واليقين بالقلب، والعشم في ملكوت الرب؟ هل الحب إلا إرادة الإله الواحد الحي القدير، وكلمته اللي ألقاها إلى رُسله عبر الزمن والتاريخ، كل واحد بلغته اللي يفهمها، وحروفه اللي يألفها، وهيئته اللي تناسب عصره؟ هل الحب إلا الله نفسه؟

كان دورك لتنتفض، ولا تستسلم لظاهر كلامها البديع، فما يرتكب أمامك الآن شيء يخالف كل ما تربيت عليه، صحيح أن القاهرة قد أفاءت عليك من روحها، فصبغتك بصبغتها، لكن ليس لهذا الحد، ليس لحد أن تخالف معلومًا من الدين بالضرورة!

قلت لـ«سندس»، وأنت تحاذر أن تجرح مشاعر «وسيم»:

- في الإسلام لا يجوز لمسيحي أن يتزوج مسلمة.

«سندس»:

- وإيه الدليل؟

تقول لها في استنكار، وأنت ترمق «وسيم» بطرف عينك:

بنص القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

تتابع:

- الآية دي ضدّك مش معاك؟

- إزّاي؟

دي آية راقية، تحمل جميع معاني المساواة بين الرجل والمرأة، فالاتنين مش من حقهم الزواج من مشرك، والمعنى إنه يحق للرجل المسلم إنه يتجوز من أي امرأة مش مشركة، وفي نفس الوقت المرأة المسلمة من حقها تتجوز من أي رجل ما دام مش مشرك.

- والمسيحيين مش مشركين؟

- المشرك ملوش دين يحرّم الخيانة ويوجب عليه الأمانة ويأمره بالخير وينهاه عن المنكر، فهيبقى موكول لطبيعته واللي اتربى عليه من خرافات الوثنية وأوهامها، أما الكتابي فمفيش بينه وبين المؤمن فرق كبير، فهو يؤمن بالله وبيعبده، ويؤمن بالحياة الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، وعشان كده الآية السابقة بتستثنيهم ممن لا يجوز الزوج منهم، وإذا كانت المسيحية مش مشركة، ويجوز للمسلم الزواج منها، فالمسيحي كمان مش مشرك، ويجوز للمسلمة الزواج منه، وإلا

ازاي تبقى المسيحية مش مشركة، والمسيحي مشرك؟! ولو كان الاتنين مشركين، لكان ربنا سبحانه وتعالى حرم الجواز منهم هم الاتنين من غير تمييز بين الذكر والأنثى، فإما إنك تفتح الباب على مصراعيه، وإما تغلقه بإحكام.

- الموضوع أكبر من كده، فالمسلم ممكن يتجوز مسيحية؛ لأنه بيحترم عقيدتها ودينها ويؤمن بنبيها، وليه القوامة عليها، ومش هيجبرها تسيب دينها، وهيحرص على تربية الأبناء على الإسلام. ومع الوقت وحُسن المعاشرة، يمكن يهديها للإسلام، وده الهدف الأساسي اللي المفروض يحطه في دماغه، أما المسلمة إذا اتجوزت مسيحي، مش هيحترم دينها لأنه غير مؤمن بيه ولا بنبيها، وده خلاف تستحيل معاه الحياة الزوجية القائمة على المودة والرحمة، ده غير إنه هيأثر في ولاده وهيربيهم على المسيحية!

- التصوّر ده فيه ظلم بالغ للمرأة، وعدم ثقة فيها، وتقليل من شأنها، فهي لو كانت مسيحية، فجوزها المسلم هيأثر فيها، ويقودها للإسلام، ولو كانت مسلمة، جوزها المسيحي هيأثر فيها ويدعوها للتنصّر، فأي تحقير من شأن المرأة وإلغاء يقينها وتمسكها بثوابتها واستقلال شخصيتها؟!

ثم مش فيه نساء شخصيتها أقوى من أزواجها؟ وبكده ممكن امرأة مسلمة قوية الشخصية تقود زوجها المسيحي للإسلام؟ وبعدين هتعمل إيه لو مسيحية اتجوزت مسلم، ودفعته لاعتناق المسيحية؟ مش في الحالة دي، تنتفي فائدة جواز المسلم من مسيحية لتحويلها للإسلام؟ والسؤال الأخير: هو مين اللي بيربي الأولاد، الأم ولا الأب؟ الأب مشغول

طول النهار بالسعي ورا رزقه، والأم هي اللي بتربي وتنمّي وتغرس الأخلاق في ولادها، إذن الزوجة المسيحية هتربي أبناء جوزها المسلم على المسيحية، والأم المسلمة هتربي أبناء زوجها المسيحي على الإسلام! لو أن الغرض من الجواز يعني هو بس الانتصار في معركة الإسلام والمسيحية!!

- جميع الفقهاء في كل العصور، حرّموا زواج المسلمة من مسيحي.

الفقهاء مش ربّنا، فلبعض الفقهاء دينٌ آخر بيستجيب للحياة اليومية، ويخضع لهوى السياسة والظروف التاريخية في بعض الأحيان، أما دين ربّنا فواحدٌ ومكتمل وعادل، بيراعي الظروف الإنسانية، والضعف البشري، وما بيتعالاش على الفطرة التي فطرنا عليها سبحانه أبدًا.

«وسيم» كان يتابع الحوار بيقظة وأمل، كأنّه الغريق الذي يتعلّق بقشة، أو السائر وحده ظمآن في صحراء، يبحث عن قطرة ماء، تروي عطشه، وتقيه هول الموت مستوحشًا عن أهله وعشيرته، لقد وجد في كلام «سندس» شفاء من جروح طالما نكأها الجميع وملؤوها بالملح!

في حين لم تحر أنت جوابًا، كان كلامها يتسلل لعقلك، بمنطقه ويقين صاحبته، يزلزل ثوابتك في البداية، ثم لا يلبث أن يُطبطب روحك، ويُهدهد مشاعرك، ويُطمئنك إلى عدالة الخالق، ويكشف لك وجهًا جديدًا من أوجه عظمته، لم تطالعه من قبل. في حين تقف أمامه آلاف السنوات من الوعي الجمعي، والخُطب والأشرطة الدينية وكبار

المشايخ، لتدور معركة طاحنة بين الجميع، تتركك منهكًا، خائر القوى، لا تثبت قدماك على أرض ثابتة!

مرة أخرى كنت تتحدّث معها عن أكثر شيء تخشاه، فقالت لك دون تردد «التكرار»، وأن تصبح حياتها سلسلة من الأفعال الروتينية المملة، التي تؤدي دائمًا لنفس النتائج، وتابعت:

التكرار هو باب العذاب الأكبر لأي حد، تصحى من النوم، تاكل، تروح الشغل، ترجع البيت، تنام، تصحى، تكمّل شغل، تنام بدري عشان تروح الشغل تاني يوم، وهكذا، حلقة جهنمية مجنونة ما بتتكسرش، مش شايف ربنا سبحانه وتعالى قال إيه عن عذاب الكافرين في النار {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}، أي مرارًا وتكرارًا، فالعذاب هنا مضاعف لأنه سوف يتكرر.

ثم اعتدلت أكثر وقالت كمن تذكّر شيئًا:

وحتى الأساطير الإغريقية، موطن العذاب الشديد للبطل دايمًا بيكون تكرار العقاب بالنسبة له، وليس العقاب في حد ذاته، زي «سيزيف» اللي فضل كل ما يرفع الصخرة لقمة الجبل تنزل تاني للأرض، ويبقى مضطر يرفعها من جديد، فالعذاب هنا مش رفع الصخرة، وإنما تكرار فعل نفس الشيء الممل للأبد!

ثم سرحت وانخفض صوتها وهي تهمس:

- أنا عايزة أعمل حاجة جديدة كل يوم، عايزة أسيب أثر في الدنيا، لما أغيب اللي حواليا تفتقدني، ولما أبطل أعمل اللي بعمله -أيا كان الناس تحسّ بالفرق، مش عايزة أبقى زيّي زي غيري.

ويوم عيد ميلادها، قرّرت «سندس» فجأة أن تزورا معًا شارع اسمه «أمير الجيوش»، فأخذتك من يدك -في شمس الظهيرة التي لا ترحم- للجزء الجنوبي من القاهرة الفاطمية، من أول ميدان باب الشعرية وصولاً لشارع المعز لدين الله بالقرب من باب الفتوح، اختارت «سندس» مقهى بسيطًا وسط الشارع الممتلئ بشرًا أضعاف حجمه، الزاخر بورش تصنيع الأواني المعدنية والبلاستيكية وقدر الفول وخزانات الماء وصياح البائعين!

كانت تشعر بروحها تعود إليها تمامًا، وسط البشر الصاخبين الساعين على لقمة العيش، لا وسط كافيهات وسط البلد أو المطاعم الشهيرة، تعوّدت هذا منها وأحببته، طلبَت القهوة دون سكر، فقررت أن تقلّدها، وتتذوق ما تتذوّقه، وهي العادة التي ضبطتَ نفسك متلبّسًا بها أكثر من مرة مؤخرًا (جرّبت عصير الجريب فروت، والتخلي عن الملح تمامًا في أكلك، وارتداء الكوتشي!) لم تكن تخشى أن تتحوّل لنسخة ذكورية منها، أنت الذي حافظتَ على فرديتك داخل إطار محكم من اعتزال الناس والغرق في ذاتك طوال عمرك، أصبحتَ تشعر فجأة أنه ليس سيئًا لهذه الدرجة أن تدع آخر يلتحم بتكوينك، وتتسلل صفاته لصفاتك، حتى يكون كل منكما امتدادًا للآخر، لا يختلف في غير ملامح الجسد، دون الروح، فما أشدّ ما تغيّرت!

كانت القهوة مُرّة للغاية، لم تستطع إكمالها، تضحك «سندس» وهي تتناولها منك، كأمٍّ وجدت ابنها الصغير يرفع شيئًا ثقيلاً لا يقدر عليه، فأرادت أن تُخفّف عنه.

تسألها مداريًا إحراجك:

- «إزاي بتتحمّلي مرارتها كده»؟

تبتسم وتقول:

- «ما أخبيش عليك، أصل بيني وبينها قصة حب ملتهبة!»

تداعبها:

- «طيب وهنسمع الخبر السعيد إمتى إن شاء الله؟».

تعتدل في مقعدها وتقول:

- «صدّقني، دي الحقيقة، إنك تحب الحاجة على طبيعتها، فتتحمّلها بقسوتها ومرارتها، من غير ما تحاول تغيّرها، أو تضيف لها حاجة تدّيها طعم تاني، مش هو ده الحب؟».

تشاكس:

- «ده يبقى حب من طرف واحد».

تهتف مبتسمة:

- «بالعكس، القهوة كمان بتبادلني نفس الشعور، ولا مرّة اتخلّت عني أو خذلتني أو خلتني ألجأ لحد غيرها!».

تضحك بينما تتابع:

- «طبعا، قهوة عندها نظر!».

لا تزال هذه الطفلة المليئة حياة تثير دهشتك وإعجابك، وكلما تخيّلت أنك بلغت منتهاها، اكتشفت أنك لم ترَ غير قمة جبل الجليد فحسب، بينما يختفي الجزء الأعظم والأكبر منه تحت السطح، ويتطلب منك أن تكون سبّاحًا ماهرًا لتحظى برؤية المزيد منه!

فهل يمكنك أن تكون هذا السبَّاح يومًا ما؟!

(٢٠)

أجّلتَ النزولَ لزيارة أمّك فترة طويلة للغاية، مُتحجّجًا في كل مرة بأنك جديدٌ ها هنا وليس من حقك الحصول على إجازة.

لم تكن تتصوّر أنك قاسي القلب إلى هذا الحد، حتى تترك بينك وبينها كل هذه المسافات والأيام والليالي والأحداث، وأنتَ الذي كنت تقول لها «اللي هتتجوزني، تتجوّزك معايا، أنا مش ممكن أعيش من غيرك لحظة واحدة»!

فكم تُغير الأيّام إذا مرّت، وبغير الإصرار على تحقيق الأحلام، ويبدو الواقع العملي بعيدًا كل البعد عن التخيّلات والأمنيات الساذجة والوعود التي نقطعها على أنفسنا في أيام الصفاء والفوران العاطفي!

لم يكفّ خيالُها عن زيارتك وتأنيبك في كل لحظة تمنحها للغربة من دمك، وكأنك لم تأتِ إلى القاهرة إلا لمنحه الفرصة الذهبية كي يؤنبك على انفراد، والغريب أنك لم تكن ترد، لم تكن الحروف تطاوعك وتكتمل مُشكّلةً سَدًا من المبررات والأعذار بشفع لك، أو يمنحك الفرصة لكي تدافع عن حلمك، وكأنك تعتقد أن شعورك بتأنيب الضمير ثمنٌ كافٍ تدفعه عن طيب خاطر، في مقابل استمرار الجري في المضمار!

فهل كنتَ تخشى إذا ذهبتَ ألا تعود مرة أخرى، وتهاب دموع عينيها إذا اندلعتْ في وجهك ساعة الملامسة، وسؤالها عن الأحوال والظروف، بينما لا تملك أي فرصة للكذب عليها، كما تفعل في التليفون وتقول إن كل شيء على ما يرام، ثم تُغير الموضوع بإخبارها آخر نكتة وتضحك بصوتٍ عالٍ لتنقل لها العدوى، فتجاوبك بضحكة باهتة بلا قلب لأن قلبها معك؟!

أم كنتَ تعمل حسابًا لحالتها الصحية التي لم تعد مستقرة منذ تركتَها -فلم تكن تهتمُ بصحَتها إلا لتقوى على خدمتك!- وتخشى أن تجابِه موقفًا يضطرك للتخلي عن حلمك وتُحمّل مسؤوليتك والعودة لرعايتها والاهتمام بها، وهو ما كنت تجده ثقيلاً على قلبك رغم حبك لها؟!

أم كنتَ تريد أن تُثبتْ لنفسك قدرتك على الاستقلال، والانتظام كترسٍ أساسي في الدائرة الكبيرة التي تُدير العالم، وبَدْء حياة جديدة لا دخل لها في تشكيلها، فقد كبرتَ وأصبحتَ خطرًا كالآخرين، ويمكنك أن تفعل كما يفعلون بمجرد أن ترغب في ذلك؟!

لكنك مع الوقت تتأكد أنك اخترتَ أصعبَ طريق لتحقيق هدفك أيا كان، فقد عزلتَ نفسك عامدًا عن مصدر الطاقة الروحية التي كانت تمدّك بها، وحرمتَ خلاياك وأعصابك من حضنها وربتة يديها الناعمتين وابتسامتها المُفرحة، وأغلقتَ على نفسك دائرةً مفرَغة ومفزِعة، رحتَ تدور في فلكها بلا توقف وبسرعة أكبر في كل مرة، منتظرًا الوصول لخط نهاية، ليس من شِيَم الدوائر ولا من مكوّناتها!

وبعد مرور خمسة أشهر كاملة، والقاهرة تزحف أكثر في دمك وتملؤه بالطحالب والأعشاب الضارة وتحاول تجنيسك رغمًا عنك، بدأتْ قدرتك على التحمل تتهاوى وتقترب بسرعة جنونية من نقطة الصفر، كالذي أشعل شمعة من طرفيها فحصل منها على ضوء أكثر، لكنه قصف عمرها أسرع أيضًا، واكتشفتَ أنه لم يكن ضروريًّا أن تجعل الأمور بهذه الصعوبة، وتأخذ نفسَك بهذه الشدة، فتجمع إلى غربة المكان، غربةَ القلب وخواءَ الروح، وتتحدى ما هو طبيعي بداخلك، وتأكل حقه في الإشباع!

لكنّكَ كنتَ كمن يهرول بسيارته على الطريق السريع، ويريد أن يستريح من القيادة ويشرب كوبًا من الماء ويغمض عينيه لدقيقة واحدة حتى يستعيد توازنه وتركيزه، لكن السيارات التي تتدفق من حوله لا تُمهله، ولا تعترف بحقّه في الراحة، فتحيطه من كل جانب، وتستحثه «بكلاكساتها» على الإسراع أكثر لمجاراتها!

ويوم جاءك صوتُها متعبًا وغائمًا وبعيدًا، وغير قادر على تحدّي ضعف شبكة المحمول والوصول إليك بخيره، توقّف عالمُك فجأة، وارتُجّ عليك، وأحسستَ أن عمرك السابق في كفة، واللحظات التالية في كفة أخرى، حتى إذا ما بَدَأتَ تدريجيًّا تعود من الهوة السحيقة التي ابتلعت وعيك، بدا كل ما يحيط بك كأنّما يتحرّك بمفرده وبالتصوير البطيء، ويجاهد للتسارع من جديد والعودة لزمنه الحقيقي!

وعندما سألتها متوجسًا ومشفقًا عما بها، غيّرَت الموضوع بإخبارك آخر نكتة، وضحكتْ بصوت حاولتْ أن يكونَ عاليًا لتنقل لك العدوى،

لكنه تحشرج في المنتصف، ولم يصل إليك منه سوى أزيز خافت وخشخشة وبعض الدموع!

لم تكن تدري ماذا تقول، لم تبدُ قويًا الآن كما كنتَ تظن نفسك طوال الأشهر المنصرمة، فجأة تحوّلت للطفل الصغير الذي يريد أن يرى أمه حالاً، ولا يهمّه إن كانت عند الطبيب أو السوبر ماركت، فهذه مواضيع فرعية لا يعترف بها قاموسه ولا تدخل في نطاق اهتمامه، المهم أن يُشكّل عينيه فورًا بأبعاد جسدها ويتعلّق برقبتها ويستشعر دفئها، ولو كان هذا آخر ما سيفعله في الدنيا!

رغم تأكيداتها وحلفانها أنها بخير وأنها مجرد وعكة عابرة وسوف تمر، أخبرتَها بإصرار من لا يحتمل النقاش، أنك قادم من أجلها الآن وفورًا، فطعنتكَ قائلة:

- وهتيجي ازاي بس يا ابني وإنت مالكش إجازات؟!

فازدردتَ لعابك بصعوبة من سُوء ما ذُكّرت به، وقلتَ بصوت مأخوذ:

- إنتي أهم عندي من مليون شغل!

تغلق الهاتف ورأسك يدور وعيناك زائغتان وعالمك كله يترنّح، لم تهتم بالاتصال بالشغل وإخبارهم أنك ستتغيب، وهرولتَ من فورك لموقف «عبّود»، ورضختَ -للمرة الأولى- لابتزاز السائق في رفع الأجرة دون مناقشة، لتكون بين يديها في أسرع وقت.

بدا الطريق أطول مما تعوّدتَ، بينما أنت عاجز عن التركيز في الكتاب الذي فتحته، أو الأغاني التي تتقافز من كاسيت السيارة في وجهك، أو

كلام جارك الذي أطمَعهُ صمتُك في أن يُلقي فوق رأسك أطنانًا من الكلام الذي لم تعِ منه حرفًا واحدًا!

كل خيالاتك مهما شطحتْ، كانت تضعُها دائمًا في المركز من كل شيء، ولم تتصور للحظة واحدة أنها يمكن أن تختفي عن الوجود ببساطة هكذا، وتتركك وحدك كما فعلها أبوك من قبل!

الذين فَقدوا أُمّهاتهم، واستمرّوا في الحياة رغم ذلك، تعوّدتَ أن تعرفهم من أول نظرة، على اختلاف أعمارهم وأسمائهم ومراكزهم، ثمة شيء مشترك يجمع بينهم جميعًا في النهاية، تلاحظه في نظرات عيونهم وحركات أياديهم العصبية وحديثهم بصوت منخفض ومتوتر عندما تأتي سيرة الماضي وبدايات الحياة، التنهيدة والسرحان والنظر للأرض ثم تَصنّع الابتسام ومحاولة سحب الحديث لاتجاه آخر!

رائحة الحقول الخضراء والناس الطيبين أول ما يستقبلَه أنفك وتكتشفه عيناك مع قرب الوصول، ثم لا تلبث معالم «شربين» الحبيبة أن تتبدّى في الأفق واحدة وراء الأخرى، وهي تقترب أكثر كأنما تُوشك أن تضمّك بين ذراعيها، وفي عينها نظرة عتاب لا تكون إلا بين الأحباب.

تهمس لها بصوت خفيض «سامحيني»، فترد عليك بلسان جارك الذي كان يختتم مُعلّقته الطويلة بقوله «عشان كده سامحته ونُست راسه، ما الصلح خير برضه يا أستاذ».

اشتريتَ من كل الفاكهة التي وجدتها لدى «عم محمود»، فكهاني والدتك المفضل، وكيلو كنافة بالقشطة من «شبارة»، وركبت «التوك توك» حتى منزلك.

لم تكن تدري كيف سيكون شكل اللقاء، هل ستجدها واقفة في انتظارك وفاتحة ذراعيها، أم راقدة على الفراش تئنّ من الألم؟

هل ستعاتبك أولاً ثم تحتضنك، أم تحتضنك أولاً ثم تعاتبك؟

هل ستتمكّن من ترديد كذبة عدم قدرتك على الحصول على إجازة مرة أخرى، أم تنهار وتعترف لها بكل شيء!

وماذا ستكون أول كلمة تستقبلك بها؟ وماذا ستكون آخر كلمة قبل أن تودّعها؟

يرتفع وجيب قلبك بشكل لم تعهده من قبل، وأنت تُدير المفتاح في قفل الباب، وتدخل.

كان نور الصالة مطفأً، وشيش البلكونة مواربًا، وعلى الضوء الخافت المتسلل من التليفزيون المفتوح على قناة «المجد»، تلمح على السُّفرة طعاما تفوح منه رائحة عبقرية لم تخاطب حواسك منذ اخترتَ البُعد، إلى جوار عُود بخور هندي برائحة الياسمين، وزجاجة مياه مثلجة وفوطة وكانز بيبسي.

ترتجف، وتشعر بقلبك يغور لقدميك، حتى وهي مريضة لا يفوتها أن تبعث إليك بكل رسائل الحب والرحمة التي في العالم!

تُغلق الباب وتخطو بتؤدة، تتجنّب إشعال النور كي لا تُعكّر صفو القداسة التي أصبحتَ موقنًا أن مستقرّها في هذا البيت الذي تعيش فيه هذه الإنسانة النادرة، وتتقدّم نحو غرفتها.

الباب مفتوح على مصراعيه، النور مطفأ أيضًا وأمّك راقدة على فراشها، رافعة نصف جسدها ومتكئة على مخدتها الصغيرة لتؤدي الصلاة، وصوتها الواهن يلهج بالدعاء لك ولوالدك الراحل وللمسلمين.

كنتَ أمامها الآن فعلاً، بينك وبينها ركعة أو ركعتان وعدّة أمتار ودموع متحجرة في مقلتيك، تشعر أن موطنها الطبيعي قلبك لا عيناك!

«السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله»، كانت إشارة البدء للدموع التي فارقت عينيك واستباحت وجهك كله، وقدميك اللتين اندفعتا في اتجاهها، وذراعيك اللتين -دون مراعاة لحالتها الصحية- التفّتا حول عنقها في قوة، قبل أن يبدأ فمك في النهل من يديها وجبينها وقدميها تقبيلاً ولثمًا!

كنتَ تريد أن تصرخ «سامحيني، ليس لي أحد سواك، ولم أبتعد إلا لكي أصبح عظيما بنظرك، سامحيني، يا إرادتي الكبرى وخريطتي وسبيلي في البحر الهائج»، لكن ابتسامتها الحانية التي بدت كالبشارة لمذنب من رب رحيم جعلتك تتوقف، وتبادلها الابتسام، ثم تجلس جوارها في صمت، قبل أن يتدفّق بينكما نهر الحديث.

أخبرتها بكل شيء، وقلت لها إنك حتى الآن لم تستطع أن تحبَ القاهرة، فقط كنتَ تشعرُ بالدهشة كلما التفتّ حولك، ووجدتَ أنك

قد أصبحت فيها بالفعل، ويوما بعد يوم تنغرسُ في تفاصيلها أكثر، وتتحوّلُ لجزء أصيل -وليس أصليًّا- فيها!

كنت ترى جميع المدن والبلاد إذا زرتها وكأنها مدينتك الطيبة، وقد غيّرتْ ملابسها الخارجية لفترة وجيزة لكسر الملل وتغيير المنظر ليس إلا، لكن دون أن تُغير الجوهر، إلا القاهرة التي خشيتَ دومًا أن تراها بنفس العين التي تعوّدتَ أن ترى بها غيرها، خشيتَ أن تراها مدينتك الطيبة في ثوب آخر، فتستأسد عليك، وترفض خلع الملابس المستعارة في نهاية المسرحية، وتبتلع بداخلها مدينتك الطيبة للأبد، فتصبح بلا وطن!

لكنْ بعد أن حططتَ الرحال في القاهرة، اختلفتْ مشاعرك تدريجيًّا، وأصبحتَ تشعر بضرورة أن تكون فيها دائمًا، ولم تعد تطيق فراقها، ولو لزيارة بلدتك الطيبة، ليس عن افتقاد أو لهفة، ولكن عن خوف من أن تنسى ما تعلّمتَه عنها وفيها، أن تفقد الكلمات القليلة التي أتقنتها من لغتها الخاصة جدًّا في التخاطب مع الهاربين إليها، فتكون مضطرًا للبدء من جديد مرة أخرى!

وكل يوم، قبل أن يلفّك النوم، كنتَ تقول لنفسك إنك ستغير حياتك كليًّا، ثم لا تفعل في اليوم التالي أكثر من أن تكرر نفس العبارة، لكن بنبرة أكثر خفوتًا، قبل أن تستسلم مرة أخرى لنوم جبري ومضطرب.

والأحلام التي كانت كبيرة وبرّاقة ومشرقة، وقادرة على تحريك الجبال، وتفجير المياه من قلب الصخرة اليابسة، علّمتك القاهرة ألا تنظر إليها بكل هذه الجدّية، أو تعطيها كل هذا الاهتمام المبالغ فيه، فهناك دائمًا

أحلام أخرى أكثر تواضعًا وبساطة يمكن أن تلعب دور المُسكّن في البداية، قبل أن تتمكّن من إزاحة ما سواها تمامًا بعد فترة، والبقاء وحدها في دائرة الشعور، تمهيدًا لأن تختفي تمامًا هي الأخرى، تاركة إياك فريسة للأسئلة الوجودية التي بلا حل دائمًا، عن نهاية الطريق الذي بدا أقصر من هذا عندما وضعت قدمك على أوله، والهدف الذي من أجله قد بدأتَ الخَطو أصلاً!

القاهرة لا تُصادق أحدًا، ولا تساعد أحدًا، ولا تُنصت لآهات أحد، فهي لا تحب الصوت المرتفع أكثر من اللازم، لا تحب الشكوى، ولا تحب أن تقضي وقتها في مواساة المحزونين والضائعين أو تضميد جراحهم، فلديها ما هو أهم!

القاهرة لا تمنح أسرارها لأحد، ولا تفتح قلبها للغرباء، فقط تتركه مواربًا لمن تتوسّم فيه القدرة على تمديد الهالة الأسطورية التي تنسجها حول نفسها باستمرار، لتُغريه بالاقتراب والمحاولة، لكنّه كلما اقترب، اكتشف أن المشوار لا يزال طويلاً، وكلما استنفر طاقته ومدّ الخطو أكثر لإدراك المراد، راوغته القاهرة اللعوب أكثر، حتى إذا ظنّ أن لا تلاقيَ، وعزم على الكفّ عن المحاولة، وبدأ في حزم حقائبه للرحيل، فتحتْ قلبها أكثر قليلاً، وعادت لتبُهره بنور ساطع قادم من عالم آخر، فتستلب عقلَه مجددًا، وتهمس في أذنه أن وحدك سوف تملك مفاتيح أسراري، ووحدك سوف يكون مسموحًا لك بدخول الغرفة المحرّمة في كل الحكايات والأساطير القديمة، فيصدّقها للمرة الألف بعد المليون، ويأخذ منها مفتاح الحجرة منتشيًا، ويفتح الباب

الخرافي في زهو وترقب، فقط ليكتشف.. أن الذي خلفه ما هو إلا جدار آخر من الذي دأبت القاهرة على زرعه في طريقه منذ لقائهما الأول!

القاهرة لا تبدو على حقيقتها لأحد، وتمنح كل واحدٍ الوجه الذي يوّد أن يراه منها، الذي يمكنه أن يُقنع نفسه بقدرته على التعامل معه، والذي به يستطيع أن يواصل الركض مغمض العينين ساعيًا وراء الجزرة التي تلوّح بها أمام عينيه، دون وعد بأنه سيكون قادرًا ذات يوم على بلوغها!

القاهرة.. مدينة بلا قلب.

وفي اللحظات التي يبلغ فيها تعبُك مداه، وتعجز عن الوقوف أكثر من هذا مُعتصمًا بوحدتك، تفكّر في الخلاص من الصخب الدائر حولك مرة واحدة، ومنح القاهريين مبررًا للندم على فقدهم شخصًا عظيمًا وألمعيًا مثلك، فتتذكر بلدتك الطيبة، وتفكر تفكيرًا كروكيًا في العودة لجذورك، بالتأكيد ستستعيد ذاكرة الكفاح هناك، وتعرف كيف تُصرّف أمورك.

لكنك تخشى أن تجد بلدتك الصغيرة الطيبة على حالها لم تتغيّر، ولم ترتدِ الملابس على الموضة، ولم تلطّخ وجهها بالأصباغ الرخيصة، تخاف أن تلتقي أناسها الطيبين البسطاء، سارحين في مسالكها، وعلى وجوههم نور القناعة رغم ضيق ذات اليد، ترتعب أن تلتقي بوجهك القديم هائمًا وحده في الطرقات والشوارع الترابية المتعرّجة، حافًا بنافذة فتاتك القديمة، متحسسًا أخبارها، ترتجف أن تجد طيفي أبيك وأمك ينظران إليك في طيبة ومودّة، ويفتحان لك ذراعيهما في

شوق، فتتأكد تمامًا أنك وحدك الذي تغيّرت للأبد، تبدّلت وأصبحتَ آخرَ، يرتدي نفس ملابسك، ويمارس نفس عاداتك، لكنه ليس أنت، أنت الموصوم والملعون بعدم الانتماء لا إلى هنا ولا إلى هناك!

كنت الآن تبكي بين ذراعي أمّك بلا توقف، فتواسيك، كأنها السليمة وأنت المريض، وتمرّر أصابعها عبر خصلات شعرك وتقرأ المعوذتين وترقيك وتدعو لك بالهداية وراحة البال، فتهدأ خواطرك وينتظم تنفسك، وتتوسّد ذراعيها وتغمض عينيك، وتنام منكمشًا فيها كما كنت تفعل طوال عمرك.

لم تنم بهذا العمق منذ سنين، ولم تشعر بكل هذه الخفة والصفاء وراحة البال منذ سنين، عدتَ تشعر بالقوة والقدرة على مواصلة الطريق الصعب، وعاد إليك إيمانك بنفسك وبقدرتك على فعل المستحيل.

توقظك أشعة الشمس التي تتسلل من الشيش المواربة وتداعب عينيك كما الماضي السعيد، فتفتح عينيك في كسل، وتتمطّع، وتلتفت لتطبع قبلة على جبين أمك، وتشكرها على كل شيء.

كانت أمك لا تزال راقدة إلى جوارك، تنظر إليك، مفتوحة العينين، ومبتسمة في حنان، وميّتة.

(٢١)

لم تُخبر أحدًا بعبور والدتك إلى العالم الآخر، كنت تشعر أن هذا سرّك الخاص الذي لا يحقّ لأحد مشاركتك فيه، وتضنّ بسيرتها أن تلوكها الألسن مقترنة بألفاظ التعزية و«التصعُّب»!

تلصق ابتسامة شمعية على وجهك، وتجهّز مجموعة من الردود المعلّبة لتواجه بها أسئلة من يتظاهرون بالاهتمام بسر غيابك الطويل نسبيًّا عن العمل -وأنت الذي لم تفعلها قبلاً- وتحاول أن تبدو أمام نفسك - ولو للحظات!- قوي الشكيمة ورجلاً مُحنكًا يدري كيف يدبّر أموره ويتخطى الصعاب!

وربما كانت مفاجأة حقيقية بالنسبة لك، عندما لم تجد مشقة في فعل ذلك، وكأنك كنت تتدرّب عليه طوال عمرك، وعندما نجحتَ تمامًا في إخفاء كل شيء عن الآخرين، ومنعتهم من النفاذ لأعماقك، وصدّرت لهم كَمًّا لا يُستهان به من المشاعر والأحاسيس وردود الفعل المزيّفة، دون أن يشعر أحد أن ثمّة تغييرًا جذريًا طرأ عليك، أو أن هناك ما يحترق بأعماقك، وهو ما جعلك تتأكد تدريجيًّا من مدى وهن العلاقات التي تُلزم نفسك بها، وقدرتك على التخلّي عنها -في أي وقت تشاء- والعيش مكتملاً وطليقًا!

ويومًا بعد يوم، كنت ترقب عن كثب الجدار الأسمنتي العازل الذي يرتفع بينك وبين الجميع، ويقسم حياتك قسمين، ما قبل اكتشاف الحقيقة وما بعدها!

ومع أن أحدًا لم يلاحظ شيئًا -كالعادة- أو يفهم، فقد منحك ذلك راحة الاستقلال والقدرة على التعامل بتجرّد وبرود مع كل ما كان يستنزف مشاعرك سابقاً ويمنحك ليالي من الأرق والتفكير!

كنتَ تنظر إليهم في البداية بحقد وكراهية، وتتعجّب من تورّطك العاطفي معهم سابقًا، وتتذكر كل المواقف التي أشعَلَتْ دمك وصفّت ماء عيونك، تحاول أن تفهم وأن تجد تبريرًا، فلا تستطيع، ثم لا تلبث أن تفقدَ الاهتمام بالأمر تمامًا، ولا يعود في قلبك ناحيتهم سوى الشفقة والرثاء، وأنتَ تشاهدهم يستهلكون أعمارهم القصيرة رازحين تحت وطأة هذه القيود العاطفية الثقيلة التي اخترعوها لتُحررهم، فإذا بها تستعبدهم وتمتطيهم!

لقد ربّاهم آباؤهم ليكونوا ضُبّاطا وأطباء وطيارين ومليونيرات، ولكنهم لم يصبحوا أيًا من هذا، لقد أخفقوا، بعضهم سقط في القاع وابتلعته الظلمة، وبعضهم تشبث -بأطراف أصابعه- بحافة الطبقة الوسطى، فتجاوز الطبقة الدنيا بالكاد، ولكنه لم يدرك العليا، فأصبح في المنتصف من كل شيء، من الرضا والسخط، من الثورة والخنوع، من الشبع والجوع، من الصحة والمرض، من الإنسانية والحيوانية، يبتسم في وجه من لا يطيقه، ليحتمي بمجتمع، ويقبل أوضاعًا شاذة ليظل في جماعة، ويعمل في وظائف يكرهها، ليشتري أشياء لا يحتاجها، ويُربّي أبناءه ليصبحوا ضباطًا وأطباء وطيارين ومليونيرات!

أليسوا بؤساء حقًّا، ويستحقون شفقتك؟!

المفاجأة الثانية كانت «سندس»، التي لم تشترِ تبريراتك وتغيّرك معها بمليم، ولم تنقطع عن الاتصال بك عبر شهور طويلة من التجاهل، وهي على يقين من أنك تُخفي عنها شيئًا خطيرًا، وإن لم تضغط عليك وتصرّ على معرفته.

كانت تعاملك كطفل صغير، يتدلّل عليها ويخفي عنها أسراره، وهي واثقة أن صدره لن يلبث أن ينوء بما يحمل، ويعترف لها بكل شيء!

والغريب أنك كنتَ تريد أن تقول لها كل شيء بالفعل، وترتمي على صدرها وتبكي ما شاء الله لك أن تبكي، ولكنك لم تترك لنفسك الفرصة كي تفعل، كنتَ تخشى تعاطفها معك، وتحرص على الظهور أمامها كاملاً بلا نقاط ضعف أو جراح تستحق المواساة!

حتى أتى ذلك اليوم، بينما كنتما تسيران وحدكما تحت بصر قمر عفيّ ومكتمل، بعد سهرة مع الأصدقاء، أمسكتَ يدها متحجّجًا بمساعدتها على عبور الطريق، لكنك لم تقدر على إفلاتها ثانية، حتى بعد أن أصبحتما على الكورنيش، وكأنك الغريق الذي يتعلّق بقشة ظهرت له فجأة وسط موج عاتٍ.

تنظر إليك «سندس» بمكر وتهمُّ بإلقاء إحدى دعاباتها اللطيفة، لكنك تعاجلها -وتعاجل نفسك!- دون سابق تخطيط ودون حتى أن تفكّر:

- «سندس».. أنا بحبك.

بدا أنها فوجئت، أو لم تتوقع أن يصدر هذا الكلام عنك أنت، أو في هذا التوقيت بالذات، فتوقفتْ عن السير، ونظرتْ إليك طويلاً دون أن

تنطق، ثم أفلتت يدها من يدك، ومدّت أصابعها بتلقائية وتخلّلت شعرها الثائر رائحة غادية، فبدت كمن يمشّط حقلاً من الليل!

كانت الثواني التالية أهم ما في حياتك على الإطلاق، فجَاوَبَتها دقاتُ قلبك بالارتفاع، وجبينُك بضخّ العرق، ونظراتُ عينيك بطول التحديق في الفم الصغير المُنمنم للمخلوقة الأكثر قيمة لديك على وجه الأرض في هذه اللحظة الخيالية!

الغريب أنك لم تصارح حتى نفسك قبلاً برغبتك في فعل هذا، وعندما كان الخاطر يجيئك، كنت تهرب منه وتراوغه وتدفنه في بئر همومك اليومية، دون أن تتصور أن تمتلك الجرأة يومًا على الاعتراف بذلك لنفسك، أو مفاتحتها بهذا الشكل!

كان الأمر أشبه بصرخة مدوّية، أَطلَقتَ كتمانها في قلبك، وأقمتَ أمامها ألف سد، لكن بمجرد أن لاحت لها ثغرة واحدة في نظامك الدفاعي المُحكَم، حتى دوّت وأعلنت عن حقها في الحياة، رغمًا عنك!

تُطيل «سندس» الصمت فيمرّ أمام عينيك شريط خاطف من كل الهزائم والمرارات التي صادفتك وأذاقتك الأمرّين طوال حياتك، ترتفع في ذهنك موسيقى ضربات القدر الجنائزية لـ«بيتهوفن» صاخبة وناضحة بالهزيمة، وتتوقع ألا تختلف هذه المرة عن غيرها، فترفضك «سندس» بحزم، أو تتركك واقفًا وحدك في الطريق كشاهد قبر، وتمضي دون ردّ، أو حتى تقوم القيامة ويرفع العالمُ كلُه الرايةَ البيضاء لمجرّد حرمانك من لحظة دفء غالية في هجير الحياة!

ولكن «سندس» تخالف توقعاتك هذه المرة، وتنطق أخيرًا ببطء ولعثمة ووجهها ينير ويكبر فيحجب ضوء القمر ويبقى وحده في مقدمة المشهد:

- وأنا كمان بحبك.

تتجمّد في مكانك للحظة، أو يوم، أو ألف سنة، لا تدري! تزداد رهافةُ حواسك فجأة فتشعر بكل نسمة هواء تمضي حولك، وكل نقطة ضوء تعبر أمامك، وكل صوت بشري أو غير بشري يحوّم في المكان، يتحلّق حولك أبوك وأمك وأصدقاؤك الراحلون، وعلى وجوههم جميعًا البِشْر والفرحة الغامرة وهم يتدافعون لاحتضانك وتقبيلك في كل مكان من وجهك، وبعضهم يقرُصك في ركبتك بمرح، تترقرق في عينيك الدموع، وتقبض على يد «سندس» باستماتة، فتتداخل معها، وتتصل بسرّها الأعظم، وتهمس ودمعة حارة تسقط من عينيك:

- أمي ماتت.

(٢٢)

منذ صارحك بسرّه، والعلاقة بينكما أصبحت أكثر خصوصية، صحيح أنه لم يعد «وسيم» الذي عرفته، بشروده الدائم، وكثرة حديثه الهامس في الموبايل، لكنك -لا تدري لماذا- أصبحتَ تألفه هكذا أكثر، وتسكُن إليه، وتستمتع بحواراته التي لم تعد تخرج عن موضوع حبه لفتاته، التي كأنها أعادت برمجته وترتيب أولوياته في الحياة، فلم يعد يرى سواها، أو يهتم لغيرها.

أصبح يتمشّى معك يوميًا بعد الانتهاء من العمل، في طريقكما لموقف الأتوبيس، يدخّن ويثرثر عنها، ويخبرك بما يعانيه من لواعج الحب، ويتعجّب كيف تمكّن من البقاء على ظهر الأرض كل هذا العمر، دون أن تكون في حياته!

وعندما تبتسم وتحاول البحث عن كلمة تشاركُ بها في الحوار، يغير الموضوع فجأة ويندفع في حديث آخر، يحكي لك عن موقف ما جمع بينهما، وكم كانت رائعة وحنونًا، وكم تأكد للمرة الألف أنه أحسَن الاختيار، فتفهم أنه لا يراك الآن فعلاً، أو يسمعك، فهو معها في تلك اللحظة، يخاطب طيفها ويعيش اللحظة مجددًا، وما أنت إلا حجّة يتحايل بها على الذكريات لتتجلّى أمام عينيه، فتمدّه بزادٍ متجدّد من البهجة، يستطيع به أن يقاوم كل الإحباطات والعقبات التي تقف في

طريقه، فترمقه في صمت، وتكتفي بمشاهدته في سعادته الفائرة، وتدعو الله أن يكتب له مخرجًا، ولا تقتصّ منه الحياة ثمن هذه الفرحة البريئة، دموعًا وآهاتٍ ولعنات!

مع الوقت أصبحتَ قادرًا على متابعة أطوار العلاقة، ومعرفة ما وصلا إليه، دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة، عندما تحدّق في وجهه، وتقرأ عينيه، كان «وسيم» شفافًا للدرجة التي تنطبع على ملامحه جميع التطورات، فترى الصفاء والجفاء والخوف والرجاء والألم والبهجة والخنوع والصمود والبُعد والتلاقي.

ورغم أنك لم تتمنّ هذا أبدًا، لكنك كنت تنتظر لحظة الانهيار، وتخشاها، «وسيم» مهيض الجناحين، والموقف أكبر منه، لم تجرؤ على نصحه بالكفِّ عما يفعل، فلا اختيار في الحب كما أنه لا اختيار في الموت، تشعر أنك تخون صداقتكما؛ لأنك تضنّ عليه بالنصيحة الوحيدة ذات القيمة في هذه اللحظة، وتعشّمه بأمل كاذب، أو على الأقل لا تردّه عن الحلم المستحيل، لكنك تفضّل أن تكون خائنًا في هذا المقام على أن تكون جزّارا، تلوّح بالسكين أمام ضحيتك قبل أن تغرسها في قلبها بلا رحمة!

آخر مرة رأيته فيها، كانت ملامحه قد فقدت شفافيتها، أصبحتْ كابية ومُصمَتَة، ملابسه غير مهندمة، وخطواته مهيضة، أحسستَ أن شيئًا عزيزًا انكسر داخله، فوضعتَ يدك على قلبك وانتظرت الكارثة، كان أول ما قاله:

- «كل الخيارات صعبة، أسهلها الفراق».

- «قصدك أصعبها!».

- «لا أسهلها؛ لأن في الحالة دي أنا وهي بس اللي هنتعذب، لكن أي خيار تاني هيدخّل أهالينا معانا في دايرة العذاب».

- «كده كده الأهل شريك أساسي في الموضوع، وعمرهم ما هيرتاحوا لو انتو كنتوا بتتعذبوا».

- «ليه ربنا بيعاقبني؟».

- «الحب مش عقاب!».

- «لما يبقى مستحيل يبقى عقاب!».

- «إحنا اللي بنخليه مستحيل أو ممكن».

- «ربنا كان قادر يخليني أحب مسيحية زيي، ليه اختارلي الطريق ده؟».

- «أكيد فيه حكمة؟».

- «وإيه الحكمة اللي ممكن تتجلّى في العذاب والإحساس بالمهانة والذل؟ إيه الحكمة في الموت البطيء والإحساس بإن الحاجة الوحيدة اللي إنت عايزها من السموات السبع والأرضين السبع عمرها ما هتبقى ليك؟!».

- «خلي عندك أمل».

- «للأسف ما عادش ينفع، الموضوع خرج من إيدينا!».

- «يعني إيه؟».

- «يعني إحنا قررنا نسيب بعض».

واندفع فجأة في بكاء مرير، كان يهتزّ ويتشنج وهو يلقي بنفسه بين ذراعيك، كأنما يبحث عن سلوى، أو ربما وسيلة يختفي بها من هذا العالم، تتجمّد في مكانك، تراقب الزملاء الذين توقفوا ينظرون إليكما في دهشة، وتربت على كتفه في حنو، وتهمس في أذنه:

- «ولربما يجمع الله الشتيتين بعدما، يظنان كل الظن ألا تلاقيا... اصبر واحتسب».

(٢٣)

منذ لحظة المكاشفة، اختلف كل شيء أمام عينيك، وبدا كأنك تُعيد شريط حياتك لبدايته، فتتخطّى البقع السوداء فيه، وتتصالح مع نفسك ومع الآخرين، عدتَ تشعر وتحسّ وتتفاعل مع من حولك، وإن لم تعد وحدةُ قياس الوقت لديك هي الثانية والدقيقة والساعة، وإنما المُدَة الفاصلة بين الابتسامة والابتسامة من شفاه «سندس»، والمكالمة والمكالمة التالية معها!

كنتَ تشعر أن العالم يهرول من حولك، وينطلق بأقصى سرعة، ككتلة سوداء واحدة.. بلا ملامح ولا خصوصية ولا هدف، فلا تشعر به أو تجد له أثرًا في نفسك، فإذا التقيتَ «سندس» أو هاتفتها، يتوقّف فجأة، ويتمهّل في السير، ويتحدّد على هيئة بشر ومبانٍ وكائنات وليل ونهار وسماء وأرض، ثم لا يلبث أن يعود كُلاً مُبهمًا ثانية بمجرد أن تُغلق «سندس» الهاتف أو تحتجب!

من فرط سعادتك، كنتَ تشكّ أحيانا أنك لا تزال على قيد الحياة، وتتصوّر أنك متّ ودخلتَ الجنة بصحبة «سندس»، فالجنة وحدها هي التي تحوي مثل هذا النعيم، وعندما تقرص نفسك أو تطلب من «سندس» أن تقرصك، فتفعل وهي تضحك، وتتأكد أنك على الأرض فعلاً، تتساءل في دهشة حقيقية: فكيف ستكون الجنة إذن؟!

عدتَ تستمتع بالطبيعة والليل والنهار والأكل والشرب والقراءة، وأصبحتَ تكتب بشكل يومي تقريبًا، دون أن تمزّق شيئًا، أو تتعثر في البحث عن الأفكار، كانت «سندس» دائمًا هناك تُطل من قلبك وفي يدها نور الإلهام، وفي صوتها الحافز الكافي للسهر والكفاح من أجل العثور على اللفظة المناسبة والحبكة الملائمة.

أصبحتَ أكثر قدرة على التفكير في أحلامك ومستقبلك، وتذكّرت لماذا جئت القاهرة أصلاً، فرحتَ تُخطط لنشر كتابك الأول، رغم علمك بصعوبة ذلك، لكن كيف يكون هناك أي شيء صعب في الحياة وبد «سندس» في يدك؟

«سندس» التي تكبر كل يوم في عينيك، وتُثبت لك أنها فعلاً نصفك الآخر الذي انفصلتَ عنه في حياة سابقة، ثم لم تلبثا أن عدتما للاتحاد مرة أخرى على هذه الأرض، كما تقول الأسطورة اليونانية القديمة، كم هو غريب كيف يمكن للحب أن يتسرّب للحنايا بهذا الشكل فيُدعّم القلب بالفولاذ، وكأنه يُعيد خلقه من جديد، أو يزيل عنه صدأ مكابدة الحياة، فيعود قويًّا مشرقًا لا يخشى شيئًا!!

الغريب أن لحظات من الصمت الطويل والسرحان كانت تنتابك وأنت في حضرتها، ناعمًا بلذّة الأُنس وسحر المنادمة، كمن يستكثر على نفسه طِيب الحياة، فيذكّر نفسه أن كل شيء وله نهاية، وكل صخب مآله إلى الصمت، أو كمن يخزّن المناظر والصور والحكايات وهي طازجة ونديّة، قبل أن تنتهي، أو يضيع مفعولها، كي يعيش عليها ما بقي له من العمر!

الشيء الوحيد الذي تمنيتَه كلما التقيت «سندس»، أن لو كانت والدتك على قيد الحياة، كانت ستبتهج بها للغاية، وتُحبّها، وتظل تُلقي على مسامعها ليل نهار قائمة بالأشياء التي يحبها ابنها العزيز والتي يكرهها، وتنقل إليها الراية في مهمة الحفاظ على هذا الشاب الطيب على قيد الحياة رغم حماقاته التي لا تنتهي، ومهمة إنقاذ العالم التي يتصوّر في نفسه القدرة على القيام بها يومًا، وهو أضعف من أن ينقذ نفسه في الأساس!

«سندس» أحبّت أمك من حكايتك، وألبوم الصور الذي لم تدع أحدًا سواها يراه، وواظبتْ على قراءة «الفاتحة» وسورة «يس» لها كل يوم جمعة، اكتشفتَ هذا من زلة لسانها، وليس من خلالها، فلم تكن تريدك أن تعرف عن ذلك شيئًا؛ لأنه موضوع خاص بينها وبين أمك ولا دخل لك فيه!

وفي أحيان كثيرة كانت «سندس» تأتيك دامعة العينين وتقول لك إنها رأت أمك في المنام، فتشعر بالدهشة والغيرة؛ لأنها لم تزرك ولا مرة واحدة منذ فارقتك، وتظلّ تستجوبها عن هيئتها وكلامها وأحوالها، ماذا قالت وماذا كانت تريد، وهي تخبرك بتفاصيل مدهشة وحقيقية وكأنها كانت تعيش معكما في بيت واحد!

فهل كان من الصعب -تتساءل- أن تظلّ الحياة على طيبتها معك أكثر قليلاً؟ وما الذي كان سينقص من الكون الوسيع بأراضيه الممدودة وسماواته السبع وجباله ووديانه وصحاريه لو أن شمس سعادتك لم يُكتب لها الغروب بشكل مفاجئ هكذا؟!

بدأ الأمر باستدعاء من مديرك في المجلة، كان الرجل شاردًا وكثير التدخين، طلب لك كوبًا من الشاي، وهو ما لم يفعله أبدًا، فتوجّستَ خيفة، وأدركتَ أن مصيبة في الطريق إليك!

وقبل أن يأتي الشاي اندفع يحدّثك عن ظروف البلد السيئة، وتدنّي توزيع المجلة، هناك قرارات جذرية لا بدّ من اتخاذها دون تأخير، سيكون هناك ضحايا بالطبع لكن هذه سُنّة الحياة، وقبل أن يقولها في وجهك أدركتَ أنك أصبحتَ خالي شغل!

ربما لو لم تكن «سندس» في حياتك، ولم تكن لديك قوتك الوليدة من حبها، لكنتَ قد أصبتَ بالهلع، واختلف رد فعلك كثيرًا عما بدوتَ عليه وأنت تبتسم في وجهه -لا تدري حتى هذه اللحظة كيف!- وتصافحه، وتقول له:

- «خير يا افندم إن شاء الله، كل شيء نصيب».

لم تكن قويًا، لكن حبك كان قويًّا، و«سندس» القابعة في داخلك لا تنفكّ تهمس في أذنك أنها معك، ولن تتركك، وسوى خسارتها، لا قيمة لأي شيء في الحياة، وكانت مُحقّة!

ورغم أنك لم تكن مُتيّمًا بعملك، فقد كان سبيلك الوحيد لتحمّل نفقات الإقامة في القاهرة، والقرب من «سندس»، لحسن الحظ لم تكن صفر اليدين في هذه الأيام، ولا يزال بحوزتك بعض المال، فلتؤجّل القلق إذن بعض الوقت.

لم تدْرِ كيف تُخبر «سندس»، وهل تبدو حزينًا وأنت تفعلها فتتعاطف معك، أم سعيداً لا مباليَ لترى قوتك وجَلَدك، لكن متى اعتمدتْ

«سندس» على المظاهر في قراءتك، وهي التي تُخمّن ما بك دون أن تفتح فمك بكلمة؟!

تنصرف قبل نهاية الدوام، وبقايا الشمس لم تزل تحاول التشبث بسماء لم تعد مِلكًا لها، تشعر بحرية مباغتة وتخفُّفٍ من كل شيء، تمضي دون هدف، طريق يقودك لطريق، وشارع يُسلمك لشارع، تعبر الإشارات، وترتقي الأرصفة، تتأمل السيارات ووجوه الناس والمحلات واليُفط المعلّقة على الجدران العالية وفوق الأعمدة والعمارات الشاهقة، وإن كنتَ في الحقيقة تتأمل ذاتك أكثر، وتتذكر كيف بدأ كل شيء، وكيف انتهى!

هل تخيّلتَ يومًا أن تهيم على وجهك في القاهرة في مكان مثل هذا، ووقت كهذا الوقت؟ ولو لم تكن ها هنا، فأين كان يمكن أن تكون؟! ولماذا لا نعرف الغيب وقتما يكون هذا ضروريًا، فندّخر من السعادات زادًا يكفينا في أوقات مداهمة الحزن، ويُخفّف عنا صدمة المجابهة؟ لماذا لا نملك الفرصة للتحكم في مصائرنا ومنع الآخرين من تبديد أحلامنا -على قلة شأنها- بالذات في اللحظات التي توشك أن تدين لنا الدنيا وتصبح ملك أيماننا؟!

بسهولة تدرك أنك تهذي دون خمر، وتحاول أن تستدعي مزيدًا من الأحزان والهزائم لتأكيد إحساسك بالاضطهاد، وبأن المؤامرة الكونية ضدّك قد بلغت أوْجَها، أنت مظلوم ومعذّب ومضطهد والعالم لا يفهمك ولا يبالي بك، ولكنه هو الخاسر حتمًا، وسوف تنتصر أنت في نهاية الفيلم، وتصعد منصة التتويج على أنغام السلام الوطني، وتبتسم في تواضع وتسامح، بينما تتسلم الكأس!

تشعر برغبة عارمة -قاومتها طويلاً- في البكاء، وبألم في باطن قدمك من طول السير دون هدى، وفي كتفك اليسرى من أثر الخبطة القوية التي تلقيتها من عابر سبيل، بدا أشد منك توهانًا وهو يعبر جوارك ويصدمك دون قصد!

تُفكر في «سندس»، لم يعد لديك سواها الآن، العالم يخصم من رصيد مباهجك بإصرار، ويقضي على جنودك في لعبة الشطرنج، ولكنه يترك لك الملكة، هذا عادل إلى حد ما، وعليك أن تُحسن استغلاله لآخر لحظة.

يرّن هاتفك، وقبل أن ترفعه لترى اسم المتصل، كنت تدرك أنها «سندس»، لقد أحسّت بك، وصلها نداؤك رغم البُعد والمسافات وحُجُب الغيب، فأرادت أن تكون معك:

- «سندس، أنا محتاج لك قوي».

- «وأنا كمان يا حبيبي».

- «عايز أشوفك حالاً».

- «هستناك في ليبرتي».

- «حالاً هكون هناك».

تُغلق الهاتف، وتفكر أن صوتها بدا على غير طبيعته، لكنك تتجاهل الأمر، بالتأكيد حالتك النفسية هي المسؤولة عن هذا الوهم، ثم هل يمكن أن تكون هناك مصيبة أكبر من تركك للعمل؟

سوف تراها بعد قليل، هذا هو المهم، سوف ترى «سندس»، وتنسى بين يديها كل أحزانك وكأنها لم تكن.

(٢٤)

تستقبلك «سندس» بابتسامة رقيقة وهي جالسة، دون أن تنهض أو تقابلك بمظاهرة صاخبة كما تفعل كل مرة، تجلس، فتربّت يدك وتهمس لك:

- «فيه إيه؟ صوتك كان ماله في التليفون؟ حصل حاجة في الشغل؟»

كنتَ تريد أن تطمئن عليها أولاً، وتعرف ما بها، مظهرها يُوحي أن هناك شيئًا ما، هل هي مريضة؟ هل تشاجرتْ مع أحد؟ هل كانت مشغولة ومع ذلك قررت مقابلتك عندما أحسّتْ بوجود مشكلة؟!

تزيح تساؤلاتك جانبًا، وتستسلم للحنان الدافق في صوتها فتقول دون مُقدّمات:

- «استغنوا عني في الشغل!».

تبتسم ابتسامة خفيفة، وتقول لك:

- «وإيه يعني؟ من بُكره الصبح ندوّر على شغل سوا، ما تقلقش».

تهدأ فجأة، وتكتشف أن مشكلتك هينة بالفعل، ولها ألف حلّ، «سندس» قالت هذا، ولا بدَّ أنه حقيقة راسخة منذ القدم، عيناها امتصّتا كل ثورتك ومخاوفك، وكلماتها قطّرت العسل في قلبك، فلم

تعد تجد فيه سوى الاستسلام لقضاء الله، والأمل في كرمه الذي لن يتأخر بكل تأكيد!

عجيبة هي «سندس»، من أين يأتيها هذا اليقين، ومَن مِن المفترض أن يُمدّ الآخر بالقوة ويفتح أمامه شبابيك الأمل؟!

«سندس» تطيل التحديق إليك، هناك شيء تريد أن تقوله، بالتأكيد هناك شيء، لكنها -ربما لأول مرة منذ عرفتها- لا تعرف كيف تقوله!

تشعر بدبيب القلق يتسلق عمودك الفقري، فتنظر نحوها بترقب، وتهمس:

- «فيه إيه؟ مالك؟ شكلك تعبان قوي ليه كده؟».

- «مفيش، مرهقة بس شوية».

- «ماتخبيش عليّا.. أرجوكي».

تصمت، وتسرح بعينيها بعيدًا، كأنما تخشى مواجهتك، تفتح موضوعات كثيرة، وتضحك نصف ضحكة، وتقصّ لك حكاية طويلة عن زميلة لا تعرفها، لا تتابع منها حرفًا، ولا تنخدع بكل هذا، فتُعيدها بقوة للموضوع الرئيسي، وتصرّ أن تعرف ما بها.

سندس تختلف عن أي فتاة قابلتَها في حياتك، فهي تملك هالة خاصة بها، لعلّها قُدّتَ منذ فجر التاريخ، في نفس المكان الذي تَصنَع فيه الشمسُ زيّها الصباحي كل يوم وتخرج به على الخلائق فتنير الدنيا، حيث تبيت الأحلام التي لم يحققها أحد، لتغتسل وترتدي ملابس أكثر إغراء وتعود لمداعبة مخيّلات الحالمين مرة أخرى، حيث يكمن سر

الرقم سبعة في الحضارة الإنسانية، وسر تحويل المعادن الخسيسة لذهب، وسر البعث والنشور، سر القُبلة الأولى والضحكة الأولى والركعة الأولى في رحاب الكعبة المشرّفة، هذه الهالة كانت ترتجف الآن، تضيء وتنطفئ، فترتجف معها «سندس»، ويرتجف معها قلبك، ويرتجف العالم، ويبدو الكل على وشك البكاء!

- «فيه إيه يا «سندس»، أرجوكي، ما تقلِقينيش أكتر من كده!».

أخيرا، تنطق «سندس»، وتشركك معها في سرّها الرهيب:

- «أنا عندي كانسر!».

(٢٥)

لم تكن قويًا في يوم من الأيام، ولكن احتياج «سندس» لك صنع منك بين يوم وليلة هذا الرجل الصلب، الذي يقدر على احتوائها داخله، وصدّ غيلان الحزن والألم عن نهش عظامها، وتهوين كل شيء عليها.

أنت الذي تخيّلت يوم فقدتَ وظيفتك أنه لا توجد مصيبة أكبر من هذا، فطعنك القدر في قلبك بحربة مسمومة، كأنما يقول لك تعلّم أن تتمتّع بما أُهديك إياه من ابتلاءات، فالقادم دومًا أصعب!

تقول لـ«سندس» إن مرضها لن يُغير شيئًا من الأمر، فهو ليس نهاية الدنيا، وغدًا إن شاء الله تشفى منه، وتعود لاستئناف حياتها من حيث توقّفت، بل على العكس -تقول لها بينما تصطنع ضحكة- يبدو المرض وبطالتك الوليدة فرصة جيدة للقاء والتواصل لوقت أطول، فلم يعد وراء أحدكما سوى الآخر.

بالفعل أصبحتَ تقضي مع «سندس» وقتًا أطول، سواء في منزلها وسط أسرتها التي تقبّلتك دون مشقة، أو في المستشفى حيث تُجري الفحوص والتحاليل بشكل دوري وتتهيأ للعلاج.

كان التشخيص سرطانًا بالثدي، حجمه أكبر من ٨ سم، أخبرها الطبيب أن عملية استئصال قد تُنهي المشكلة، بكت «سندس» يومها

كما لم تبك من قبل، كانت تشعر أن المرض اللعين يأخذ منها أكثر من حياتها، يأخذ أنوثتها وكينونتها، كادت ترفض وتتقدم نحو الموت أنثى مكتملة، لكنك احتويتها بين ذراعيك وربت على شعرها وهمست:

- «مهما حصل هتفضلي أجمل بنت في نظري».

تبتسم «سندس» وسط دموعها، وتهمس:

- «كده مش هقدر أحوشك لما تعاكس واحدة غيري، واحدة كاملة!».

تدمع عيناك وتقول:

«ومين يبقى عنده «سندس» ويفكر يعاكس حد تاني؟! عينيا ما عادتش تقدر تشوف غيرك حتى لو عازت».

وخضعتْ «سندس» للجراحة، كانت ترتدي روب العمليات، وتبتسم في انهزام، وحولها الأطباء في معاطفهم البيضاء، والجدران البيضاء، والكلمات المحايدة البيضاء، كل شيء أبيض، لكنه بياض المرض والشحوب، بياض الثلج والجليد، بياض كلمة النهاية في آخر الفيلم، وبياض زَبَد البحر الذي يذهب جُفاء!

استأصل الطبيب الثدي، وحزمة من الخلايا الليمفاوية حوله، على أمل السيطرة على الورم، وسط محاولات «سندس» للتأقلم مع الوضع الجديد، وقبول حقيقة أنها ستبقى في المستشفى فترة للخضوع لجلسات الأشعة والكيماوي.

«سندس» كانت ترفض أن تلتقي المرضى الآخرين، أو تتعرف إليهم، وتستمع لمعاناتهم، وتشيح بوجهها للناحية الأخرى، عندما ترى أحدهم

في غرفة الكشف أو الأشعة مصادفة، وتهمس لك: «مش عايزة أحب حد وبعدين أفقده!».

كانت تريد أن تحاصر المرض، داخلها وخارجها، ولا تفتح له مزيدًا من الأبواب التي يُمكن أن يتسلل لها من خلالها.

الدكتور كان معجبًا بشجاعتها، والتزامها بمواعيد العلاج، في حين كانت هي ترى ذلك على النقيض تمامًا، فتقول لك بينما تتناول حبة الدواء، أو بعد عودتها منهارة من جلسة الأشعة:

«لو أنا شجاعة بجد، أبطّل آخد الدوا، أنا باخده عشان جبانة، وخايفة من الموت!».

تقول لها:

- «ومين اللي ما بيخافش من الموت؟».

تهمس:

- «اللي شاف كل حاجة وعرف كل حاجة ما بيخافش من الموت، لكن أنا لسّه فيه حاجات كتير قوي كان نفسي أعرفها!».

- «زي إيه؟»

- «إيه اللي الكروان بيقوله بإصرار كل ما يغرّد؟ وشكل أول دقة قلب لابني وهو في أحشائي، وطعم عرقك وإنت بين أحضاني، وشكلك وإنت عندك ٦٠ سنة!».

- «ومين قال إنك مش هتعرفي كل ده؟».

- «هعرفه فين؟».

- «في الجنّة».

كنتَ تتذكّر والدتك كثيرًا في هذه الأيام، وتتخيّل أنها لا شك تراقبك، وتبكي من أجلك ومن أجل «سندس»، بل لعلها لا ترفع رأسها من السجود أمام عرش الرحمن، داعية لك بالتثبيت وزوال المحنة.

«سندس» أيضًا أخبرتك أنها تحلم بها كثيرًا، ورغم أنها لا تتذكر الحلم عادة، فإنها تصحو منه دائمًا، مستبشرة وهادئة البال.

وفي اليوم الذي رأت فيه والدتك تهديها وردة بيضاء تسرّ الناظرين، أخبركما الدكتور أن الأمور تتحسّن، وأنهم تمكّنوا من حصار الورم جزئيًا.

كانت هذه أسعد دقائق تعيشونها منذ أسابيع، «سندس» أشرقت فجأة، وبدت كأول يوم رأيتها فيه، قلت لها: «لازم نحتفل».

كانت «سندس» مقيمة في المستشفى خلال هذه الفترة، فاقترحتْ وعيناها تلمعان في شقاوة أن تتسللا من وراء الأطباء، وتغادرا المستشفى ساعة أو ساعتين، فقد أوحشتها الدنيا خارج هذه الجدران، دون وعي وافقتها، اتصلتَ بصديق واقترضتَ منه سيارته، وانتظرتَ حتى هبط الليل وخفّت الرقابة، ثم رشوتَ رجل الأمن وممرضتها، وأسندتها وتسللتما خارجًا، تنهدتْ «سندس» وهي ترى الشوارع والبشر والطرقات، وبدت غير مصدّقة أنها مرة أخرى في الدنيا الحقيقية!

- «عايزة تروحي فين يا فندم؟».

- «الكورنيش، عايزة أشوف النيل».

النيل يغفو بين ضفتيه واثقًا وعفيًا، والبشر يروحون ويجيئون من أمامه، وسط الأضواء والكلاكسات والثرثرات والنداءات، لم تقوَ «سندس» على مغادرة السيارة، اكتفت بركن رأسها على النافذة نصف المغلقة، وإرسال نظرها لمعانقة كل شيء.

- «بتعرف تعوم؟».

- «طبعا، ده أنا سمكة!».

- «بجد؟».

- «أمّال، بس على الرمل بس».

تضحك «سندس» ضحكتها التي تدوّخك، وتطلب أن تحضر لها حمّص الشام.

كنت سعيدًا لدرجة اعتقدتَ معها أن كل ما مضى ليس إلا حلمًا ثقيلاً، لم يلبث أن انتهى -مثل كل الأحلام- إلى غير رجعة، فها هي ذي «سندس» أمامك، ملء السمع والبصر، تحدثك وتضحك لنكاتك، وتبدو الدنيا في ناظريك أجمل من الجنة.

(٢٦)

يعود «وسيم» للظهور فجأة في حياتك!

منذ شهور لم تعرف عنه شيئًا، بعد أن ترك العمل، وانقطعت أخباره، تُفاجأ بتليفون منه يطلب لقاءك، ورغم ظروفك النفسية وحاجة «سندس» المُلحّة إليك، لا تتردد، وتقابله في «ليبرتي».

كان شاحبًا كمن يعاني سوء التغذية وقلّة النوم، لكن معنوياته مرتفعة، لم تكد تعانقه وتجلس أمامه، حتى راح يلخّص لك الفترة التي انقطع فيها عنك، ويُخبرك بتفاصيل الصراع الذي خاضه مع فتاته ضد الجميع، والحرب الشعواء التي اتّحدت فيها الأسرتان للتفريق بينهما، وكيف حشدا لهم كل حبهما وثقتهما، ليخرجا منها بأقل قدر ممكن من الخسائر، انفتحتْ جروح، وخارت عزائم، وتسلل الشك لحظات، وبدا أنهما لا يمكن أن ينتصرا أبدا!

يقول لك ساخرًا:

- «وأخيرًا يا أخي المسلمين والمسيحيين اتوحّدوا بحق وحقيقي.. بس على ضرورة إنهاء علاقتنا!».

ثم أطلق ضحكة، بدتْ غريبة تمامًا على الجو العام، وإن بدّدت قليلاً من الوحشة، ومنحتكَ الفرصة لإعادة تأمّل ملامحه التي اكتسبتْ -بلا

شك- شيئًا جديدًا، آسرًا وقويًّا، لم تستطع تحديده تمامًا، وإن كنتَ قد أدركتَ أنه وسيم جديد بالفعل، وسيم مناسب تمامًا للصراع الذي يخوضه.

عاد «وسيم» للحديث وهو يخبرك عن الليلة الفاصلة في تاريخ علاقتهما، عندما ذهب للكنيسة وأوقد بضع شموع للعذراء، كانت الضغوط قد وصلت منتهاها، ولم يعد ثمة ما يمكنهما فعله، فقررا الانفصال! يومها وقف بين يدي ربّه يرتجف كورقة في مهب ريح صفصف عاتية، وهو يحضّر ويراجع الدعاء الذي سيُكرره مرارًا وتكرارًا في اللحظات التالية، حتى يستجيب الله له.

تلا بعض الصلوات، ثم ركع على ركبتيه، واهتزازه يتزايد، وحلقه يجف، سوف يتكلم الآن، ويكشف عن طلبه، آخر أمل له، ويطلب من خالقه أن يسلّها من دمه ولحمه، وأن يهبه الصبر على فراقها، هذه لحظة تساوي حياته بأكملها، احتشد، دار لسانه في حلقه يتذوق الكلمات التي توشك على الخروج، توقف ثانية أخيرة، يلتقط فيها نفسًا مضطربًا، ثم انهار فجأة في البكاء وهو يهتف من أعماق قلبه «يا رب اجمعني بيها»!

ساعتها عرف أن حبها إرادة الله، أكثر مما هي إرادته، وأنه لا حياة لأحدهما دون الآخر.

قلتُ له مأخوذًا:

- «وقررت إيه؟».

تجمّد لحظات، ثم قال ببطء ودون أن تهتز نبراته:

- «هتجوّزها!».

تبدو على ملامحك الدهشة، رغم توقّعك لهذا الرد، وتشعر بالحيرة بين رغبتك في تمني السعادة له، والخوف عليه من مصير غامض، تهمس:

- «متأكد؟».

يقول في إصرار:

- «مفيش حل تاني، هي حياة واحدة بس اللي هنعيشها يا صاحبي، ومش ممكن نصرفها أبدًا «بقشيش» على حيوات الآخرين».

- «وهي موافقة؟».

«أكتر مني، وعارفة طبيعة اللي هنواجهه، ومستعدة تتحمّل أي حاجة في مقابل وجودنا مع بعض».

- «وهتعيشوا ازاي هنا؟!».

- «مش هنعيش هنا، الفترة اللي فاتت كنت بدوّر على حاجة برّه، وربنا كرمني بشغلانة في الإمارات، هنهرب، ونتجوّز هناك».

لم يعد هناك ما يقال، ينهض، فتنهض، وتسلّم عليه مأخوذًا، وهو يستحلفك ألا تخبر أحدًا، حتى لا تنكشف خطته، فتعده، دون أن تدري أنها آخر مرة سوف تراه فيها، وكأنك لم تشبع من الفقد!

تنهض وتضم هذا الولد العزيز بقوة إليك، وتقول له في حرارة:

- «خلي بالك من نفسك».

- «ما تقلقش عليا».

قبل أن يندسّ ين السائرين، ويغيب عن ناظريك تمامًا.

(٢٧)

حملَت الأسابيع التالية أنباء غير سارة، فقد عاد الورم لشراسته، كانت الفترة الماضية مجرد استراحة، أعقبتها محاولات مستميتة لتعويض ما فاته من لحظات دون إيلام «سندس» وتعذيبها! فانتشر في الثدي الآخر، ثم تحت الإبطين، ثم في الرئتين والكبد!

وأصبح حتمًا أن تبقى «سندس» بالمستشفى طوال الوقت، حيث بدأت تعاني آلامًا مبرحة، وتفقد القدرة على الوقوف والكلام، وتخضع لجرعات أعلى من العلاج، سقط شعرها كاملاً، وبصقتْ دمًا، وبدأت خلاياها تذوب خلية بعد أخرى، وبداها تمتلئ بالثقوب السوداء القبيحة من انتهاك الإبر والمحاليل، وأصبحتْ تغيب معظم اليوم في غيبوبة المخدر.

لم تكن تشعر بالوقت وأنتَ تتأمّل ملامحها المستسلمة التي كان يمكن أن تكون لفتاة سعيدة نائمة، لن تلبث أن تستيقظ لتمارس حياتها بشكل طبيعي، ربما تتزين وترتدي ثيابًا أنيقة وتذهب للسينما، ربما تقابل صديقاتها لتثرثر معهن عن آخر الصيحات في عالم الموضة، وربما تخرج مع حبيبها ليتحدثا في همس عن البيت الذي سيجمعهما غدًا في المستقبل!

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، خاصة أنت!

في اللحظات القليلة التي كانت «سندس» تُفيق فيها من أثر المُسكّن القوي الذي تستعين به على ألمها، كانتْ تلتفت نحوك في لهفة، كأنما تتأكد أنك لا تزال إلى جوارها، وتحتضن أصابعك في وهن، وتهمس: «هتفتكرني؟» فتترك دموعك لتجيب عنك، فترتاح ملامحها، وتترك نفسها مرة أخرى للدوامة التي تبتلعها بلا قرار، تاركة إياك لدوامة أخرى، تبقى فيها مفتوح العينين محدّقًا في الفراغ، وداخلك ألف صرخة وألف أمل مذبوح وألف كلمة رجاء إلى المولى سبحانه أن يرحمها، ويُخفّف عنها ما تعانيه.

لم تكن تطيق الأكل في هذه الأيام، أو النوم، أو الكلام، حتى تعجبتَ من بقائك على قيد الحياة رغم قلة ما دخل جوفك، وندرة ما أسندتَ رأسك لجدار أو وسادة واقتنصتَ لحظات من الغياب، وتعجبتَ أكثر من القوة التي كنتَ تبدو بها أمامها وأنت تبثّ في عروقها الصبر والجَلَد، وتخبرها بآخر الأخبار والنكات والشائعات، وتضع لها زهورًا جديدة في حجرتها كل يوم، وتقسم لها أن كل هذا إلى زوال، ولن يلبث أن يصبح قصة طريفة تحكونها لأطفالكما وأنتما تضحكان.

مرّت الأيام ببطء، والموت يقترب من «سندس» على مهل، لا يريد أن يلتهمها مرة واحدة، فيُريحها، ولكنه يبعث رسله ومريديه يهيّؤون له الضحية، ويقضمون منها قطعة كل لحظة، ويزرعون طريقه إليها بالأشواك والأنين!

كانت «سندس» تقاوم بكل ما أوتِيَتْ من قوة، تضحك أحيانًا وتبكي أحيانًا، تهمس لك بأعذب كلمات الحب مرة، ومرة تثور على المرض والقضاء والقدر ويتعالى صوت نشيجها حادًّا ومكتومًا، تُخبرك بأنها لم

تتمنّ سوى أن تقضي معك باقي أيامها، فهل كانت أمنيتها صعبة لهذه الدرجة؟! فتخبرها أن الوقت لم يفت أبدًا، وأنك ستظل معها حتى تحقق أحلامها، فتقول لك إنها لم تعد تؤمن بالمعجزات، ثم تبكي وتقول إنها فقط خائفة عليك من بعدها، فأنت مجرد طفل كبير، تحتاج لمن يرعاك ويقضي لك حاجاتك وإلا انتهيت.

أمام الموت، تبهت كل الألوان، ويبدو كلُ شيءٍ أَخَرَ وكأنه من عالم مغاير، بعيد وغير حقيقي وغير مُمكن، وكأنه شخبطة طفل بقلم رصاص على لوح من الثلج، الطموحات والصراعات والشهوات والخلافات والدموع والمخاوف وسهر الليالي، لا شيء، هناك إنسان سيتوقّف عن كل هذا، وغدًا تتوقف أنت، وأتوقف أنا أيضًا، النهاية واضحة أكثر من اللازم، محدّدة أكثر من اللازم، فعلام المكابرة، وعلام طول المسير؟

قرب النهاية بقليل، بعد أن نصحها الأطباء بالعودة للمنزل، وعدم تعذيب نفسها بمزيد من الجرعات، طلبتْ منك أن تملأ لها الغرفة شموعًا بيضاء، ففعلتَ، ورغم عجزها طوال الأسابيع الفائتة عن النهوض، تسنّدت عليك، وتعلّقت بذراعك، وزرعتْ عينها في عينيك للأبد.

كنتما معًا في عالم آخر. في المنطقة الوسطى بين الموت والحياة، بين فرط السعادة وشدة العذاب، بين شدة الامتلاء وشدة العدم، كانت تنظر إليك وتهمس: «بحبك»، فترد بصوت من عالم آخر: «بحبك»، وتغيبان معًا في قُبلة أبدية، كانت آخر عهدها بالدنيا، وآخر عهدك بالأمان.

(٢٨)

«تررررررررررررررررررن»..

تـنهض في تثاقـل وتفـتش عـن الموبايـل لتغلـق المنبـه اللحـوح المـزعج المنبعث منه. تتذكر أنك ألقيته على الترابيزة البعيدة عن متناول يدك أمس، فمن شـدة التعـب والخَدَر، سـارعتَ برميه في أول مكان لمحتْهُ عيناك، عندما وضعتَ قدميك في الشـقة في ساعة متأخرة من الليل، حتى تتخلّص مـن ثقله ولـو كان هـزيلاً، ثم تمـدّدت بكامـل ثيابك على السـرير، ولـم تنتبه إلى علبة كـريم الشـعر وبنطلـون التـرنج والشـاحن وفرشـاة الأسـنان التي تمـدّدتْ قبلك عليه، ولا حتى للفحـة البـرد التي تسـلّلت مـن الشـباك المـوارب وفَرمـت عظامـك، وسـبّبت لـك معظـم كوابيس الليلة الفائتة.

بصعوبة تلملم عظامك وجلـدك وأطرافك وملامحك المعتـادة، تحشـو كل هذا في البنطلون الجينز الأزرق والبلوفر الأسـود والشراب والحذاء، وتدفع به ليمرّ عبر باب الشقة الذي وجدَته مواربًا.

يبدو أن أحد زملائك في السَكن قد نسـيه بـالأمس، أو أنك أنت الذي نسيته!

تنتابك رغبة مجنونة في أن تتركه مواربًا كما كان، بل تمد يدك وتفتحه أكثر، وتُسلم قدميك للسلم الطويل، وتتسلى -مثل كل يوم - بعدِّ الدرجات المفرودة أمامك، فيعاودك نفسُ الهاجس القديم، الذي يُلحّ عليك، أنها تزداد يومًا بعد يوم، خاصة في أثناء الليل، عندما لا يكون هناك من يراقبها أو يتجسّس عليها، وعندما يكاد التعب يقتلك، وتتمنى لو لم تسكن في الدور الخامس.

في طريقك لموقف الأتوبيس، أشكال المارّين حولك لا تتغيّر، الشاب الأسمر الصعيدي الذي يمسح سيارة حضرة الضابط، بعرقه الذي لا ينقطع صيفًا ولا شتاء، وصمْته الذي تشكّ معه أن له لسانًا من الأصل، وجلبابه الذي يرتفع لمنتصف وسطه، فيظهر من تحته الكلسون الشتوي البني، ويداه تحاولان إزالة الوسخ عن السيارة القديمة المتهالكة، ليقلّل من وجبة السباب والشتيمة التي يُتحفه بها حضرة الضابط كل يوم، مهما بذل من جهد.

والبنت الصغيرة التي تحتضن حقيبتها منتظرة أتوبيس المدرسة، تمر جوارها فتسمعها تتحدث إلى حبيبها في الموبايل، بصوت هامس ومضطرب مليء بشجن البدايات، تعطيه الموعد القادم بعد درس «الرياضيات» على أول كوبري «قصر النيل».

والرجل العجوز الساهر في بلكونة الدور الأرضي، ليل نهار، صيفًا وشتاءً، بنفس البيجامة الكستور المخطّطة بالطول، والروب والطاقية وجريدة الأهرام في يده، يشرب كوب الشاي، ويحاول إشعال سيجارته التي لم ترها مرة واحدة مشتعلة، يتحدث إلى كل من يمرّ أمامه، ويسأله عن أي شيء؛ بحثًا عن لحظات دفء وتواصل، وعندما

يستوقفك ويبدأ في حديث مكرّر، تنتبه أن تاريخ الجريدة من عام مضى، وأن كوب الشاي يبدو باردًا لا يتصاعد منه أي دخان، وتلمح هذا التمزق في بيجامته، والبقعة السوداء الكبيرة في مُقدّمة الروب، فتستأذن منه بلطف، حتى لا تتأخر عن موعد زيارة «سندس» في بيتها الجديد.

القاهرة - مدينة نصر

١١ فبراير ٢٠١٣

الساعة الواحدة والثلث صباحًا

عن الكاتب

حسام مصطفى إبراهيم

- وُلد بدولة الجزائر عام ١٩٨٠، وتربّى في مدينة «شربين»، بمحافظة الدقهلية، تخرّج عام ٢٠٠١ في كلية التربية، جامعة المنصورة، قسم اللغة العربية. واستقر بالقاهرة عام ٢٠٠٧. عمل صحفيًا بالدستور، ومجلة «سيدتي»، وموقع «بص وطل»، وموقع «جود نيوز». إضافة لعمله مراجعًا لغويًا ومحرّر ديسك ومترجمًا.

- مشرف صفحتي «السلم»، بالعدد الأسبوعي من جريدة التحرير.

- نائب رئيس قسم الديسك المركزي بموقع «دوت مصر».

- مدير صفحة «اكتب صح» على «فيس بوك».

www.facebook.com/Arabicismylanguage

صدر له:

١. يوميات مدرّس في الأرياف، ساخر.

٢. اللحاق بآخر عربة في القطار، قصص قصيرة.

٣. نعيق الغراب، دراسة نقدية عن القصة القصيرة وأهم روداها من الشباب.

٤. جرّ شكل، ساخر.

٥. من غلبي، ساخر.

٦. لولا وجود الحب، أدب رسائل.

٧. قراءة في كف الحب.

للتواصل

البريد الإلكتروني:

Hosammostafa_it@yahoo.com

فيس بوك:

https://www.facebook.com/HosamMostafaEbrahem

بتوقيت القاهرة

لم يتصوّر أن يحدث له كل هذا في المدينة الكبيرة..

أو أن يكون طرفًا في كل الأحداث الهائلة التي جرت له ولرفاقه..

إلى هذا الحدّ يُمكن أن تختلف النهايات عن المقدّمات ؟!

وإلى هذه الدرجة تمتلئ الحياة بالعجائب والمفاجآت ؟!

لكنّه، وهو يقدّم كشف حساب لحياته، لم يشعر بالندم.

فقد أحبّ وكره، وكسب وخسر، وضحك وبكى،

والأهم : قابل "سندس"، خلاصة النساء في الأرض،

وتذكرته الرابحة في يانصيب الحب..

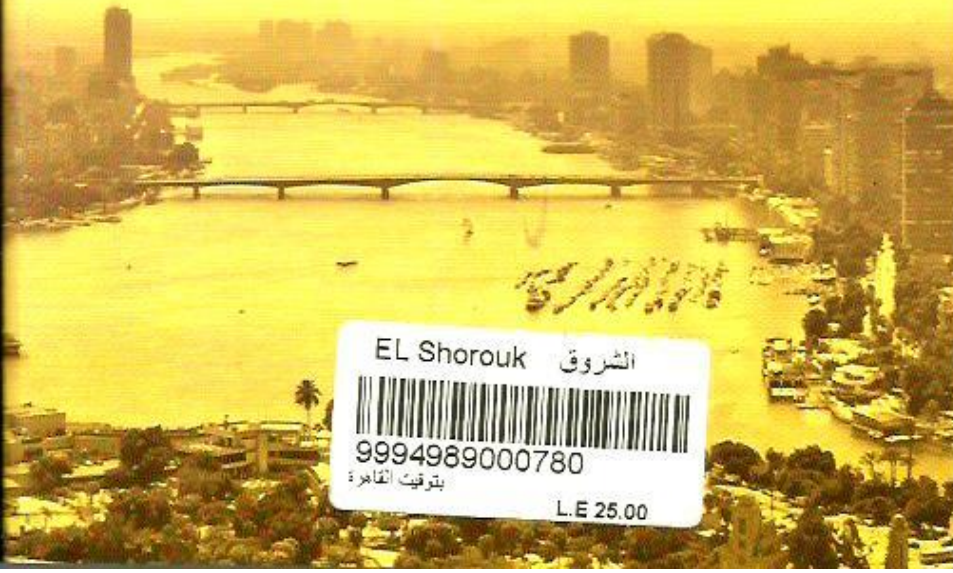

الشروق EL Shorouk
9994989000780
بتوقيت القاهرة
L.E 25.00